كشف الغمام

عن

الأئمة الأعلام

موسوعة علمية شاملة للتعريف بالأئمة الأعلام

" أبي حنيفة، مالك، الشافعي، ابن حنبل "

إعداد

فريق العلمية بمنتدى الطريق إلى الله

شبكة الطريق إلى الله

طريقك نحو معرفة الله

WAY2ALLAH.COM

الفهرس

مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن ولاه، أما بعد:
لقد خلق الله –سبحانه وتعالى– الإنسان بيده وعلَّمه، ورفع قدر العلم وعظَّمه، وخص به مِن خلقه مَن كرَّمه، وحض عباده المؤمنين على النفير للتفقه في الدين، فقال تعالى – وهو أصدق القائلين–: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ التوبة:١٢٢، ندبهم إلى إنذار بريته، كما ندب إلى أهل رسالته، ومنحهم ميراث أهل نبوته، واختصهم مِن بين عباده بخشيته، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر: ٢٨، ثم أمر سائر الناس بسؤالهم، فقال سبحانه: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل: ٤٣.

وجعل سبحانه هذه الأمة مع علمائها، كالأمم الخالية مع أنبيائها، فهؤلاء العلماء هم المقتدى بفعالهم، "فاتفاقهم حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة"، تحيا القلوب بأخبارهم، وتحصل السعادة باقتفاء آثارهم، ومن العلماء الذين برزوا الأئمة الأربعة؛ أبو حنيفة، مالك، الشافعي، أحمد بن حنبل، أربعة من الأئمة العظام على أيديهم تتلمذ الناس وأُلفت الكتب وأُسست المذاهب.

فهيا بنا نتعرف على سيرتهم العطرة ....

١. الإمام أبي حنيفة النعمان

– نسبه وقبيلته

هو النعمان بن ثابت بن المَرْزُبان، وكنيته أبو حنيفة، من أبناء فارس الأحرار، ينتسب إلى أسرة شريفة في قومه، أصله من كابل (عاصمة أفغانستان اليوم)، أسلم جَدُّه المرزُبان أيام عمر –رضي الله عنه–، وتحوَّل إلى الكوفة، واتخذها سكنًا.

– مولده ونشأته

وُلِد أبو حنيفة –رحمه الله– بالكوفة سنة ثمانين من الهجرة على القول الراجح (٦٩٩ م) ونشأ –رحمه الله– بالكوفة في أسرة مسلمة صالحة غنية كريمة، ويبدو أنه كان وحيد أبويه، وكان أبوه يبيع الأثواب في دكان له بالكوفة، ولقد خَلَف أبو حنيفة أباه بعد ذلك فيه. حفظ أبو حنيفة القرآن الكريم في صغره، شأنه شأن أمثاله من ذوي النباهة والصلاح. وحين بلغ السادسة عشرة من عمره خرج به أبوه لأداء فريضة الحج وزيارة النبي –صلى الله عليه وسلم– ومسجده.

– منهجه

فقيه وعالم مسلم، وأول الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الحنفي في الفقه الإسلامي. كان أبو حنيفة يعتمد في فقهه على ستة مصادر هي: القرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع، والقياس،والاستحسان، والعُرف والعادة.

وكان أول ما اتجه إليه أبو حنيفة من العلوم علم أصول الدين ومناقشة أهل الإلحاد والضلال، ولقد دخل البصرة أكثر من سبع وعشرين مرة، يناقش تارةً ويجادل ويرد الشبهات عن الشريعة تارة أخرى، وكان يدفع عن الشريعة ما يريد أهل الضلال أن يلصقوه بها، فناقش جهم بن صفوان حتى أسكته، وجادل الملاحدة حتى أقرَّهم على الشريعة، كما ناظر المعتزلة والخوارج فألزمهم الحجة، وجادل غلاة الشيعة فأقنعهم.

- أخلاقه

*وفائه لإخوانه بعد مماتهم

قال أبو حنيفة: "ما صليتُ صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدي، وإني لأستغفر لمن تعلمتُ منه علمًا، أو علَّمتُه علمًا" "تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣ صـ ٣٣٤".

كان أبو حنيفة ربما مر به الرجل فيجلس إليه لغير قصد ولا مجالسة، فإذا قام سأل عنه، فإن كانت به فاقة (حاجة) وصَله، وإن مرِض عاده، حتى يجره إلى مواصلته ."تاريخ بغداد للخطيب البغدادي جـ ١٣ صـ٣٦٢ "

*لا يغتاب أحدًا قط

قال عبدالله بن المبارك: "قلت لسفيان الثوري: يا أبا عبدالله، ما أبعد أبا حنيفة من الغِيبة! ما سمعتُه يغتاب عدوًّا له قط، قال: هو والله أعقل من أن يسلِّط على حسناته ما يذهَب بها" "تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣ صـ ٣٦٣"

*رجاحة عقله

قال علي بن عاصم: "لو وُزن عقلُ أبي حنيفة بعقل نصف أهل الأرض، لرجَح بهم"."تاريخ بغداد للخطيب البغدادي جـ ١٣ صـ ٣٦٤"

*جوده وكرمه

قال قيس بن الربيع: "كان أبو حنيفة يبعث بالبضائع إلى بغداد، فيشتري بها الأمتعةَ، ويحملها إلى الكوفة، ويجمع الأرباح عنده من سنة إلى سنة، فيشتري بها حوائج الأشياخ المحدِّثين وأقواتهم وكسوتهم وجميع حوائجهم، ثم يدفع باقي الدنانير من الأرباح إليهم، فيقول: أنفقوا في حوائجكم، ولا تحمَدوا إلا اللهَ؛ فإني ما أعطيتُكم من مالي شيئًا، ولكن من فضل الله عليَّ فيكم، وهذه أرباح بضائعكم؛ فإنه هو والله مما يُجريه الله لكم على يدي، فما في رزق الله حولٌ لغيره " "تاريخ بغداد للخطيب البغدادي جـ ١٣ صـ ٣٦٢"

*أمانته في صنعته

كان أبو حنيفة يبيع الخز (الحرير)، فجاءه رجلٌ فقال: "يا أبا حنيفة، قد احتجت إلى ثوب خز، فقال: ما لونه؟ فقال: كذا وكذا، فقال له: اصبر حتى يقع وآخذه لك إن شاء الله، فما دارت الجمعة حتى وقع، فمر به الرجل، فقال له أبو حنيفة: قد وقعت حاجتك، فأخرج إليه الثوب فأعجبه، فقال: يا أبا حنيفة، كم أزِنُ للغلام؟ قال: درهمًا، قال: يا أبا حنيفة، ما كنت أظنك تهزأ، قال: ما هزأت، إني اشتريت ثوبين بعشرين دينارًا ودرهم، وإني بعت أحدهما بعشرين دينارًا، وبقِيَ هذا بدرهم، وما كنت لأربحَ على صديقٍ" "تاريخ بغداد للخطيب البغدادي جـ ١٣ صـ ٣٦٢"

*ورعه وحلمه

قال مكي بن إبراهيم (شيخ البخاري): "جالستُ الكوفيين فما رأيت أورعَ من أبي حنيفة". "تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣ صـ ٣٦٣"

قال عبدالله بن المبارك: "ما رأيت رجلًا أوقر في مجلسه، ولا أحسن سمتًا وحِلمًا من أبي حنيفة." "سير أعلام النبلاء ج ٦ صـ ٤٠٠"

*حُسن جواره

قال عبدالله بن رجاء الغداني: "كان لأبي حنيفة جارٌ بالكوفة إسكاف يعمل نهاره كله، حتى إذا أقبل الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحمًا فطبخه، أو سمكة فيشويها، ثم لا يزال يشرب الخمرَ، حتى إذا دب الشراب فيه غنَّى بصوت وهو يقول:

أضاعوني وأيَّ فتًى أضاعوا .... ليوم كريهةٍ وسدادِ ثغرِ

فلا يزال يشرب الخمر، ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم، وكان أبو حنيفة يسمَع ضجته، وكان أبو حنيفة يصلي الليل كله، ففقد أبو حنيفة صوته، فسأل عنه، فقيل: أخذه العسَس (الشرطة) منذ ليالٍ، وهو محبوس، فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر من غدٍ، وركب بغلته، واستأذن على الأمير، قال الأمير: ائذَنوا له، وأقبلوا به راكبًا، ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط، ففعل، ولم يزل الأمير يوسع له من مجلسه، وقال: ما حاجتك؟ قال: لي جار إسكاف، أخذه العسس منذ ليالٍ، يأمر الأمير بتخليته؟! فقال: نعم، وكل من أخذه بتلك الليلة إلى يومنا هذا، فأمر بتخليتهم أجمعين، فركب أبو حنيفة والإسكافي يمشي وراءه، فلما نزل أبو حنيفة مضى إليه، فقال: يا فتى، أضعناك؟! قال: لا، بل حفِظت ورعَيت جزاك الله خيرًا عن حرمة الجوار ورعاية الحق، وتاب الرجل، ولم يعُدْ إلى ما كان"."تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣ صـ ٣٦٣: ٣٦٢"

- عبادته

*كثرة صلاته وقيامه الليل

قال أبو عاصمٍ النبيلُ: "كان أبو حنيفة يسمى الوتِدَ؛ لكثرة صلاته" ."سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٦ صـ ٤٠٠"

قال محمد بن فضيل: "قال أبو مطيع: كنت بمكة، فما دخلت الطواف في ساعة من ساعات الليل إلا رأيت أبا حنيفةَ وسفيان في الطواف"."تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣ صـ ٣٥٣"

قال الحسن بن محمد الليثي: "قدمت الكوفة فسألت عن أعبدِ أهلها، فدُفعت إلى أبي حنيفة "."تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣ صـ ٣٥٣"

*كثرة قرائته للقرآن

قال خارجة بن مصعب: "ختَم القرآنَ في الكعبة أربعة من الأئمة؛ عثمان بن عفان، وتميم الدَّاري، وسعيد بن جُبير، وأبو حنيفة ."تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣ صـ ٣٥٦"

قال مِسعَر بن كدام: "دخلتُ المسجد فرأيت رجلًا يصلي، فاستحلَيْتُ قراءته، فقرأ سبعًا، فقلت: يركع، ثم قرأ

الثلث، ثم قرأ النصف، فلم يزل يقرأ القرآن حتى ختمه كله في ركعة، فنظرتُ فإذا هو أبو حنيفة ."تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣ صـ ٣٥٦"

قال مِسعَر بن كِدام: "رأيت أبا حنيفة قرأ القرآن في ركعة" "سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٦ صـ ٤٠١"

* حبه للصدقة

قال علي بن حفص البزاز: "كان حفص بن عبدالرحمن شريكَ أبي حنيفة، وكان أبو حنيفة هو الذي يقوم بشراء البضاعة، فبعث إليه في رفقة بمتاع، وأعلَمه أن في ثوب كذا وكذا عيبًا، فإذا بعتَه فبيِّن هذا العيب، فباع حفصٌ المتاعَ ونسِي أن يبيِّن العيب، ولم يعلم من اشتراه، فلما علِم أبو حنيفة بذلك، تصدق بثمن المتاع كله" "تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣ صـ ٣٥٨"

*حبه وكثرة حجه لبيت الله

حتى قيل أنه حج أكثر من **٥٥** مرة "سيّر أعلام النبلاء للإمام الذهبي"

– علمه

*نبوغه في الفقه

ذكرت المصادر عدة روايات عن أبي حنيفة تدل على أنه عندما تفرغ لطلب العلم اتجه إلى الفقه بعد أن استعرض العلوم المعروفة في ذلك العصر، واختار أولًا علم الكلام والجدل مع الفرق، ثم انصرف عنه إلى الفقه.

قال الشافعي: "الناس في الفقه عيالٌ على أبي حنيفة" "سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٦ صـ ٤٠٣"

قال حيان بن موسى المروزي: "سئل ابن المبارك: مالكٌ أفقه، أو أبو حنيفة؟ قال: أبو حنيفة" "سير أعلام النبلاء ج ٦ صـ ٤٠٢"

قال ابن المبارك: "أبو حنيفة أفقهُ الناس" "سير أعلام النبلاء جـ ٦ صـ ٤٠٣"

*حرصه في علم الحديث

قال يحيى بن معين (إمام الجرح والتعديل): كان أبو حنيفة ثقةً، لا يحدِّث بالحديث إلا بما يحفظه، ولا يحدث بما لا يحفظ" ."سير أعلام النبلاء ج ٦ صـ ٣٩٥"

*عالم حسن الفهم جيد الحفظ

قال علي بن عاصم: "لو وُزن علم الإمام أبي حنيفة بعلم أهل زمانه، لرجح عليهم" "سير أعلام النبلاء ج ٦ صـ ٤٠٣"

قال شعبة بن الحجاج أيضًا: "كان والله حسَنَ الفهم، جيد الحفظ" "الخيرات الحسان. لابن حجر المكي صـ ٣٤"

- مشايخه

بلغ عدد شيوخ أبي حنيفة –رحمه الله– أربعة آلاف شيخ، فيهم سبعة من الصحابة، وثلاثة وتسعون من التابعين، والباقي من أتباعهم، ولا غرابة في هذا ولا عجب، فقد عاش –رحمه الله– تعالى سبعين سنة، وحج خمسًا وخمسين مرة، وموسم الحج يجمع علماء العالم الإسلامي في الحرمين الشريفين. قال الإمام أبو حفص الكبير بعد أن ذكر عدد شيوخ الإمام –رحمه الله–: "وقد صنَّف في ذلك جماعة من العلماء، ورتبوهم على ترتيب حروف المعجم."

- وأستاذ الإمام أبي حنيفة هو حماد بن أبي سليمان، وهو تابعيٌّ كوفي ثقة، روى عنه أبو حنيفة –رحمه الله– ألفي حديث من أحاديث الأحكام، وأكثر من ثلث أحاديث الإمام في مسنده الذي جمعه الحَصْكَفي، هي برواية الإمام عنه، عن إبراهيم بن أبي موسى الأشعري، عن الأسود، عن عائشة –رضي الله عنهم–.

ومن شيوخه أيضًا:

عطاء بن أبي رباح، والشَّعبي، وجبلة بن سحيم، وعدي بن ثابت وعبد الرحمن بن هُرمز الأعرج، وعمرو بن دينار، ونافع مولى ابن عمر وقتادة، وقيس بن مسلم، والقاسم بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود وعبدالله بن دينار، وعبدالعزيز بن رفيع، وعطية العَوفي وعبدالملك بن عمير، وأبي جعفر الباقر، وابن شهاب الزهري، ومحمد بن المنكدر، وأبي إسحاق السَّبيعي، ومنصور بن المعتمر ومسلم البطين، وخلقٌ سواهم. "سير أعلام النبلاء ج ٦ ص ٣٩١"

- تلاميذه

عبدالرزاق بن همام (شيخ الإمام أحمد)، حماد بن أبي حنيفة وزُفَر بن الهذيل التميمي، محمد بن الحسن الشيباني ووكيع بن الجراح، والقاضي أبو يوسف، وغيرهم كثير."سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٦ ص ٣٩٣:٣٩٤"

- مصنفاته ومؤلفات

من أشهر الكتب التي تنسب إلى الإمام أبي حنيفة كتاب المسند وكتاب الفقه الأكبر .وكتاب الفقه الأكبر قد نسبه إليه بعض الأجلاء من العلماء، منهم ابن أبي العز في شرح الطحاوية، وشيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل، وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية، وقد ذكر ابن تيمية أنه معروف مشهور عند أصحابه، وأنهم رووه بالإسناد عن أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي.

*أسباب قلة مؤلفاته

لم يكن عصر الإمام أبي حنيفة عصر تأليف وتدوين بالمعنى المعروف فيما بعد، بمعنى أن يخلو العالم إلى نفسه فيكتب أو يملي الأشياء الكثيرة، فلم يكن أبو حنيفة قد فرغ نفسه للتأليف والإملاء، فقد كان يقوم الليل حتى يصبح، فإذا أصبح صلى الصبح ثم جلس يُعلِّم الناس حتى يضحي، ثم ذهب إلى بيته لحاجاته، ثم يخرج إلى

السوق لينظرَ في شؤون تجارته ودنياه، ويعودَ مريضًا، أو يشيعَ ميتًا، أو يزورَ صديقًا، وينام بين الظهر والعصر، ثم يجلس بعد العصر لتعليم الناس والإجابة على أسئلتهم إلى الليل، وهكذا. والتدريس شغله عن التأليف، وهو فوق ذلك مرجع طلاب العلم وشُداته، يقصدونه من الكوفة والبصرة وداني البلاد وقاصيها، لذا لم تكن لأبي حنيفة تآليف كثيرة تتناسب مع مكانته العلمية العظيم.

- مما قاله الإمام

قال أبو حنيفة: " لقِيتُ عطاءً بمكة فسألته عن شيء، فقال: مِن أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة، قال: أنتَ من أهل القرية الذين فرَّقوا دِينهم وكانوا شيَعًا؟ قلت: نَعم، قال: فمِن أي الأصناف أنت؟ قلت: ممن لا يسبُّ السَّلف، ويؤمِن بالقدَر، ولا يكفِّر أحدًا بذنب، قال :فقال لي عطاء: عرَفْتَ فالزَمْ ."تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣ ص ٣٣١"

قال أبو حنيفة: "القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال غيرَ هذا فهو كافر؛ "الانتقاء لابن عبدالبر ص ١٦٦"

قال أبو حنيفة: "رأيتُ رؤيا أفزعتني، حتى رأيت كأني أنبش قبر النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأتيت البصرة فأمرت رجلًا يسأل محمد بن سيرين، فسأله، فقال :هذا رجل ينبش أخبار النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ "تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣ ص ٣٣٥"

ومن كلمات الإمام أبي حنيفة النعمان التوجيهية والدعوية لتلاميذه:-

١. من تكلم في شيء من العلم ونقده وهو يظن أن الله تعالى لا يسأله عنه: كيف أفتيت في ديني؟ فقد سهلت عليه نفسه ودينه.

٢. من طلب الرياسة في غير حينه، لم يزل في ذل ما بقي.

٣. أقبلْ على متفقهيك كأنك اتخذت كل واحد منهم ابنًا وولدًا؛ لتزيدهم رغبة في العلم.

٤. اعلمْ أن العمل تبع للعلم كما أن الأعضاء تبع للبصر، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير، ومثل ذلك الزاد القليل الذي لا بد منه في المفازة مع الهداية أنفع من الجهالة مع الزاد الكثير.

٥. لا يحل لمن يفتي من كتبي أن يفتي حتى يعلم من أين قلت.

٦. من يطلب الفقه ولا يتفقه مثل الصيدلاني يجمع الأدوية ولا يدري لأي داء هي حتى يجيء الطبيب، كذلك طالب الحديث لا يعرف وجه حديثه حتى يجيء الفقيه.

٧. كنْ من السلطان كما أنت من النار، تنتفع منها وتتباعد عنها، ولا تدنُ منها؛ فإنك تحترق.

٨. أنتم مسار قلبي، وجلاء حزني، قد أسرجت لكم الفقه وألجمته، فسألتكم بالله بقدر ما وهب لكم من جلالة العلم، لَمَا صنتموه عن ذل الاستئمار.

- مما قيل فيه

قال يحيى بن نصر: "كان أبو حنيفة يفضِّل أبا بكر وعمر، ويحب عليًّا وعثمان، وكان يؤمن بالقدر خيرِه وشرِّه، ولا يتكلم في الله عز وجل بشيء، وكان يمسح على الخفين، وكان من أفقهِ أهل زمانه وأتقاهم. "الانتقاء لابن عبدالبر ص ١٦٣"

قيل للقاسم بن معن: "ترضى أن تكون من غلمان أبي حنيفة؟ قال: ما جلس الناس إلى أحد أنفع من مجالسة أبي حنيفة."

قال عليُّ بن عاصم: "لو وُزن علم الإمام أبي حنيفة بعلم أهل زمانه لرجح عليهم."

قال حفص بن غياث: "كلام أبي حنيفة في الفقه أدق من الشعر ولا يعيبه إلا جاهل."

سُئل يزيد بن هارودن: "أيُّهما أفقه، الثوريّ أو أبو حنيفة؟ فقال: أبو حنيفة أفقه، وسفيان أحفظ للحديث، وما رأيت أحداً أعلم من أبي حنيفة."

قال الذَّهبيُّ: "كان أبو حنيفة من أذكياء بني آدم، جمع الفقه والعبادة والورع والسخاء، وكان لا يقبل جوائز الدولة."

قال الفضيل بن عياض: "كان أبو حنيفة رجلًا فقيهًا، معروفًا بالفقه، مشهورًا بالورع، واسع المال، معروفاً بالأفضال على من يُطيفُ به، صبورًا على تعليم العلم بالليل والنهار، كثير الصَّمت، قليل الكلام، حتى تردَ مسألة في حلال أو حرام، فكان يُحسن أن يدلُّ على الحق، هاربًا من مال السلطان، كان إذا وردت عليه مسألة فيها حديث صحيح اتبعه وإن كان عن الصحابة والتابعين، وإن قاس فأحسن القياس."

قال وكيع بن الجرَّاح شيخ الشافعي: "كان أبو حنيفة عظيم الأمانة، وكان يُؤثِر الله على كل شيءٍ، ولو أخذته السيوف في الله تعالى لاحتملها."

وقال الإمام أحمد بن حنبل: "إن أبا حنيفة من العلم والورع والزهد وإيثار الآخرة بمحلٍ لا يدركه أحد، ولقد ضُرب بالسياط لِيَلِيَ للمنصور فلم يفعل، فرحمة الله عليه ورضوانه."

وقال الإمام أبو يوسف: "كانوا يقولون: أبو حنيفة زينَّه الله بالفقه، والعلم، والسخاء، والبذل، وأخلاق القرآن التي كانت فيه."

وقال عنه الإمام سفيان الثوري: "ما مقلت عيناي مثل أبي حنيفة."

- مواقف من حياة الإمام

*أبو حنيفة وتوجيه امرأة

يحكي لنا أبو حنيفة رحمه الله عن ذلك بطريقته الشائقة الماتعة فيقول: خدعَتني امرأة، وفقَّهَتني امرأة، وزهَّدَتني امرأة!، أما الأولى: فكنتُ مجتازًا فأشارت إليَّ امرأةٌ إلى شيء مطروحٍ في الطريق فتوهَّمتُ أنها خرساء، وأن الشيء لها، فلما رفعتُه إليها قالت: احفَظه حتى تسلِّمَه لصاحبه.

وأما الثانية: فسألتني امرأةٌ عن مسألة في الحيض، فلم أعرفها، فقالت قولًا تعلَّمتُ الفقه من أجله. وأما الثالثة: فمررتُ ببعض الطرقات، فقالت امرأة: هذا الذي يصلِّي الفجر بوضوء العشاء، فتعمدتُ ذلك حتى صار دأَبي

"الأشباه والنظائر (٣٦٥) لابن نجيم"

فلله هي أو هنَّ، ولله هو!

*بين أبي حنيفة والمنصور (١)

انتفض أهل الموصل على أبي جعفر المنصور، وقد اشترط المنصور عليهم أنهم إن انتفضوا تحل دماؤهم له، فجمع المنصور الفقهاء وفيهم الإمام أبو حنيفة.

فقال: أليس صحيحًا أنه عليه الصلاة والسلام قال: "المؤمنون عند شروطهم"؟ وأهل الموصل قد شرطوا ألا يخرجوا عليّ، وقد خرجوا على عاملي وقد حللت دماؤهم.

فقال رجل منهم: يدك مبسوطة عليهم وقولك مقبول فيهم، فإن عفوت فأنت أهل العفو وإن عاقبت فبما يستحقون. فقال لأبي حنيفة: ما تقول أنت يا شيخ؟ ألسنا في خلافة نبوة وبيت أمان؟.

فأجاب: أنهم شرطوا لك ما لايملكون (وهو استحلال دمائهم) وشرطت عليهم ما ليس لك، لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معان ثلاث.* فأمرهم المنصور بالقيام فتفرقوا فدعاه وحده.

فقال: يا شيخ، القول ما قلت. انصرف إلى بلادك ولا تفت الناس بما هو شين على إمامك فتبسط أيدي الخوارج.

*يشير الإمام أبي حنيفة –رحمه الله تعالى– إلى قوله –عليه الصلاة والسلام–:" لا يحلّ دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيّب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة". متفق عليه "المناقب لابن الجوزي ج٢ ص ١٧"

*بين أبي حنيفة و المنصور (٢)

أراد أبو جعفر المنصور أن يولّي أبا حنيفة القضاء فأبى، فحلف عليه ليفعلنّ، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل، فقال الربيع بن يونس الحاجب: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف؟. فقال أبو حنيفة: أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفارة أيماني، وأبى أن يلبّي الأمر.

قال الربيع: رأيت المنصور ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء وهو يقول: اتق الله ولا ترعي أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب؟ لو اتجه الحكم عليك، ثم هددتني أن تغرقني في الفرات أو تلي الحكم لاخترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون من يكرمهم لك، ولا أصلح لذلك فقال له: كذبت أنت تصلح، فقال له: قد حكمت لي على نفسك، كيف يحل لك أن تولي قاضيًا على أمانتك وهو كذاب؟! (وفيات الأعيان ٥\٤٠٧)

ومن مواقفه التربوية –رحمه الله–

١. وجَّه ولده حمادًا إلى دراسة علم الكلام فترة، ثم أمره بالانصراف عنه، فجادله ولده قائلًا: ألست كنت تأمرني به؟ قال: بلى، وأنا اليوم أنهاك عنه، قال: ولم؟ قال: يا بني، إن هؤلاء المختلفين في أبواب علم الكلام كانوا على قول واحد ودين واحد حتى نزغ الشيطان بينهم، فألقى بينهم العداوة والاختلاف، وهمة أحدهم أن يظفر من صاحبه بشنعة يشنع بها عليه، فإذا بلغ الكلام هذا الحد، فتركُه خير.

٢. أدب تلاميذه بأربع وسائل: بالعلم، والقدوة، والإقناع، وتقديم العلم في وعاء من الحب.

٣. رفض أن يتكلم في عِرض مَن تكلم في عِرضه، قال له قائل: يتكلمون فيك ولا تتكلم في أحد؟! قال: هو فضلُ الله يؤتيه من يشاء، عفا الله عمن قال فينا مكروهًا،تفقَّهوا في دين الله، وذرُوا الناس وما اختاروا لأنفسهم.

٤. شدة حرصه على التطهر في الجسد والثوب والمكان، خالف سفيان الثوري في جواز الوضوء بماء توضأ به الغير، وطبق أتباعه ذلك عمليًّا؛ فاتخذوا للوضوء حياضًا ذات صنابير تمنع استعمال الغير لهذا الماءِ غيرِ المطهِّر عند أبي حنيفة؛ فنُسبت إليهم هذه الصنابير وسميت بالحنفيات، فالحنفية التي نستعملها الآن صباح مساء تذكرنا بهذه الحلقة المباركة لأبي حنيفة وطلابه.

٥.كان صبورًا معهم لدرجة إرهاق جسده من السهر: خرج ذات ليلة من المسجد بعد صلاة العِشاء، فسأله تلميذه (زفر) في مسألة، فتجاريا يتقايسان حتى نودي لصلاة الفجر وهما قائمان أمام المسجد، فرجعا إلى صلاة الفجر، ثم رجعا إلى المسألة حتى استقرت على قول أبي حنيفة.

٦. كان حين يشكل عليه مسألة يقول: ما هذا إلا لذنبٍ جنيته، فيستغفر الله، ويتوضأ، ويصلي ركعتين، فيمن الله عليه بحل المشكلة.

٧. اقتحم الخوارج المسجد وأبو حنيفة وأصحابه جلوس، فقال لأصحابه: لا تبرحوا مكانكم، فجاء إليهم الخوارج يريدون الفتك بهم، فقالوا: ما أنتم؟ فرد أبو حنيفة عليهم: نحن مستجيرون، قال أميرهم: دعوهم، وأبلغوهم مأمنهم، واقرؤوا عليهم القرآن، فسلمت المدرسة من الإبادة بسرعة بديهته.

٨. يدخل عليه غلام فيسأله مسألة، فيجيب عنها أبو حنيفة، فيقول الغلام له :أخطأتَ، ويعرض عليه مسألة أخرى، فيقول له: أخطأت، فيتأذى بعض الحاضرين من جرأة الغلام على أبي حنيفة، فيقول له الشيخ: دعهم؛ فإني قد عودتهم هذا من نفسي.

– أبرز المحن التي تعرض لها الإمام وموقفه منها

١. محنة أبي حنيفة مع ابن هبيرة (في عهد الدولة الأموية)

كان الإمام أبو حنيفة عازفًا عن المناصب الدنيوية، وخاصة المناصب التي يكون صاحبها قريبًا من السلطة الحاكمة، وخاضعًا لتأثيراتها وضغوطها، لما يعلمه من حجم المخالفات التي سيقع فيها صاحب المنصب من أجل إرضاء السلطة الحاكمة: إما رهبة، وإما رغبة لذلك لما عرض ابن هبيرة والي العراق في أيام الخليفة الأموي

يزيد بن الوليد – الملقب بالناقص – على الإمام أبي حنيفة منصب القضاء بالكوفة فرفض أبو حنيفة بشدة؛ فهدده ابن هبيرة بالضرب والحبس، ومع ذلك أصر أبو حنيفة على الرفض، فما كان من ابن هبيرة إلا أن ضربه وجلده؛ فلم يُزِدْ ذلك الضرب أبا حنيفة إلا إصرارًا على الرفض، وعندما تركه ابن هبيرة، وعين آخر مكانه أدت هذه الحادثة لارتفاع مكانة أبي حنيفة بين الناس، وعلا شأنه بين علماء الزمان.

٢. محنة أبي حنيفة مع أبي جعفر المنصور (في عهد الدولة العباسية)

لما انتهى الخليفة أبو جعفر المنصور من ثورة النفس الزكية التي اندلعت عام ١٤٥هـ، وفعل ما فعله مع الإمام مالك في المدينة، التفت لمن حامت عليهم الشائعات، ودارت حولهم الأقاويل في اشتراكهم في ثورة النفس الزكية، أو حتى في تأييدهم لها، وعلى رأس هؤلاء الإمام أبو حنيفة، فطلبه إلى بغداد، فحُمِلَ الإمام إلى هناك، وفي مجلس الخليفة المنصور، دعا المنصور أبا حنيفة إلى منصب القضاء – وهو يعلم علم اليقين أن الإمام سيرفض تمامًا –كما فعل من قبل مع الأمويين وواليهم ابن هبيرة، وإنما أراد المنصور بهذا العرض أن يختبر مدى طاعة وولاء أبي حنيفة للدولة العباسية

فرفض الإمام وقال أنه لا يصلح فغضب أبو جعفر المنصور بشدة، وأقسم بأغلظ الأيمان ليلينَّ الإمام منصب القضاء، وكان من الطبيعي أمام هذا الغضب، وهذه الأيمان المغلظة، وسطوة الخلافة أن يرضخ أبو حنيفة لكل هذه الضغوط ويوافق، ولكن أبا حنيفة العالم الرباني، الذي لا يبالي إلا بسخط الله عز وجل وحده وغضبه، والذي يعلم عواقب أمثال هذه المناصب المشروطة يرد على الخليفة المنصور قسمه بقسم أغلظ ويقسم أبو حنيفة ألا يلي هذا المنصب الخطير

عندها قرر الخليفة المنصور أن يُصعد ضغوطه على الإمام؛ فخيره بين قبول القضاء أو السجن، فأصر أبو حنيفة على الرفض، ولسان حاله يقول :"رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ " يوسف: ٣٣، فأمر المنصور بضربه أولا، ثم حملوه في القيود إلى سجن بغداد.

وفي السجن المظلم عانى الإمام أبو حنيفة من التضييق والتشديد، وأيضًا من التهديد بالقتل يومًا بعد يوم، وقد أمر الخليفة المنصور بالتشديد على الإمام، وكان وقتها على مشارف السبعين، وقد وهن جسده، وحطمته دروس العلم، وسؤالات الناس، ومع ذلك لم يتراجع أبو حنيفة عن قراره، ولم تلن عزيمته قيد أنملة، ولكن إن صمد قلبه وروحه وعزيمته وإيمانه أمام كل هذه الضغوط فإن الجسد الواهن لم يصمد كثيرًا؛ فتوفي الإمام أبو حنيفة في سجنه في رجب سنة ١٥٠هـ، وصعدت روحه إلى بارئها وهي في قيود السلطان لتخاصمه يوم القيامة أمام المحكمة الإلهية يوم لا ينفع مال ولا بنون، وقد قيل: إن المنصور قد دس على الإمام أبي حنيفة من وضع له السم في السجن، وإن صح الكلام فقد توفى الرجل شهيدًا تقيًا، صابرًا محتسبًا، والله أعلم بما كان، وما سيكون.

– أبرز الشبهات التي تعرض لها الإمام أبي حنيفة

١. نُدْرة الاستدلال بالحديث عن أبي حنيفة

عاش الإمام، وهو عالم، أكثر من ثلاثين سنة في ظل الدولة الأموية، وثماني عشرة سنة في ظل الدولة العباسية، وقد ضيق عليه الأمويون الخناق ففر من دمشق عاصمة دولتهم إلى مكة المكرمة، ثم عاد إلى بغداد لما آل الأمر إلى بني العباس ولكن تمسكه بالحق، والانتصار له أنشأ بينه وبين أمراء الدولة العباسية خصومة جديدة، إلى درجة أن منعوه من الفتوى ودرس العلم، وزجوا به إلى السجن في آخريات حياته، ولم يجد خصوم أبي حنيفة من السياسين والقضاة عيبا يسوئون به سمعته سوى أن يفتروا عليه بإعراضه عن السنة وإحلال الرأي محلها.

وقد دافع الإمام عن نفسه، ورد على إدعاءات خصومه القدماء ردودًا مفحمة سجلتها الرواية الأمينة بكل إخلاص وصدق، قال الإمام –رحمة الله–: "كذب والله وافترى علينا من يقول: إننا نقدم القياس – يعني الرأي – على النص – يعني الحديث – وهل يحتاج بعد النص إلى قياس"؟ "ينظر الميزان للشعراني: ٥١"

وقال: "نحن لا نقيس إلا عند الضرورة الشديدة، وذلك أننا ننظر في دليل المسألة من الكتاب والسنة، أو أقضية الصحابة، فإن لم نجد دليلاً قسنا حينئذ مسكوتاً عنه على منطوق به" "ينظر الميزان للشعراني: ٥١"

هذا كلام إمام يقدر السنة حق قدرها، ويجعلها تالية للقرآن في الاستدلال، وإن إدعى خصومه عليه وأكثروا

وكان يقول: "إنا نأخذ أولاً بكتاب الله، ثم السنة، ثم بأقضية الصحابة، ونعمل بما أتفقوا عليه، فإن أختلفوا قسنا حكماً على حكم، بجامع العلة بين المسألتين، حتى يتضح المعنى"

وكان يقول" :ما جاء عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فعلى الرأس والعين، بأبي وأمي – أي أفدي رسول الله بأبي وأمي – وليس لنا مخالفته. وما جاء عن أصحابه تخيرنا. وما جاء عن غيرهم – يعني التابعين – فهم رجال ونحن رجال"

وفي رواية أخرى: "زاحمناهم" يعني: لنا حق إبداء الرأي في المسألة معهم .إذن، فما الذي يريده منكرو السنة من الإمام أبي حنيفة حتى يقلعوا عن الإفتراء عليه، ويعرضوا عن إتخاذه منبع شبهة للطعن في سنة خاتم الأنبياء والمرسلين؟!

إن الإمام أبا حنيفة لم يختلف عن بقية الأئمة الكبار أصحاب المذاهب الفقهية المعروفة

فأصول مذهبه هي أصول مذاهبهم المتفق عليها بينهم، وهي على الترتيب: الكتاب – السنة – القياس – الإجماع. فعلام الإساءة إلى هذا الإمام العظيم؟ وكيف يتخذ منه الضالون المضلون قدوة لهم في الإساءة إلى سنة رسول الله الكريم؟.!

وقد فاتهم أن أحاديث رسول الله لم تكن قد جمعت جمعًا موسعًا مدروسًا في حياة أبي حنيفة، فكان – رضي

الله عنه – إن أعرض عن اعتماد شيء من الأحاديث فإنه يريد التثبت والتأكد من صحته، لا أنه يرفض السنة رفضًا مطلقًا.

٢. تجريحه في باب العقائد

وهذا باطل، ولم يخالف أبو حنيفة السَّلف الصالح إلا في مسألة الإرجاء، إذ وافق شيخه حماد فيما يسمى بمذهب مرجئة الفقهاء في الإيمان، وقد أوضح شيخ الإسلام أن هذا كان في ذلك الوقت خلافًا لفظيًّا فحسب، ثم تطوَّر لاحقًا على يد الماتريديَّة والأشاعرة فصار حقيقيًا، و والله تجد اليوم أقوامًاغالَوا في الإرجاء الحقيقي مع الحكام الطواغيت، بل فاقوا الجهميَّة أنفسهم، ومع ذلك يَلمزون الإمام أبا حنيفة، ولا نقول إلا: رمتني بدائها وانسلَّت.

يقول شيخ الإسلام في كتاب الإيمان (ص٣٣٧): "إنَّه لم يكفر أحد من السلف من مرجئة الفقهاء، بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال، لا بدع العقائد، فإن كثيرًا من النزاع فيها لفظي، لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنَّة هو الصواب."

وقال في مجموع الفتاوى (٧ | ٢٩٧): ومما ينبغي أن يعرف أن أكثر التنازع بين أهل السنَّة في هذه المسألة هو نزاع لفظي، وإلاَّ فالقائلون بأن الإيمان قول من الفقهاء –كحماد بن أبي سليمان وهو أول من قال ذلك، ومن اتبعه من أهل الكوفة وغيرهم– متفقون مع جميع علماء السنَّة أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد وإن قالوا: إن إيمانهم كامل كإيمان جبريل، فهم يقولون: إن الإيمان بدون العمل المفروض ومع فعل المحرمات يكون صاحبه مستحقًا للذم والعقاب كما تقوله الجماعة. ويقولون أيضًا: إن من أهل الكبائر من يدخل النار كما تقوله الجماعة. "

وبه قال الذهبي وابن أبي العز إذ قال في شرح العقيدة الطحاوية (ص٣٦٢): "الاختلافُ الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السُّنَّة صُوريٌّ، فإنَّ كون أعمال الجوارح لازمةٌ لإيمان القلب أو جزء من الإيمان، مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، بل هو في مشيئة الله إن شاء عذَّبه وإن شاء عفا عنه، نزاعٌ لفظيٌّ لا يترتب عليه فساد اعتقاد."

لكن القوم أصروا على أن يفتروا عليه أقوالًا ومسائل بهدف التشنيع، وظاهرها الكفر والضلال. قال الإمام ابن تيمية في المنهاج (٢ | ٦١٩): "كما أنَّ أبا حنيفة –وإن كان الناس خالفوه في أشياء وأنكروها عليه– فلا يستريبُ أحدٌ في فقهه وفهمه وعلمه. وقد نقلوا عنه أشياء يقصدون بها الشَّناعة عليه، وهي كذبٌ عليه قطعًا"

٣. اتهامه بالقول بخلق القرآن

روى عبد الله في "السُّنَّة"، قال: "سمعت أبي –رحمه الله– يقول (عن أبي حنيفة): أظنُّ أنه استُتيب في هذه الآية: (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) [الصافات: ١٨٠]، قال أبو حنيفة: "هذا مخلوق"، فقالوا له: "هذا

كفر"؛ فاستتابوه". قال الشّيخ الدكتور محمد بن سعيد القحطانيُّ معلِّقًا: "لا يُقام حكمٌ بظنٍّ. "
ثم إنَّ الإمام أحمد، قد ظهر له خطأ ظنه، وثبت عنده أن أبا حنيفة ما قال بخلق القرآن قط. قال أبو بكر المروزيُّ: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: "لم يصحَّ عندنا أنَّ أبا حنيفة كان يقول: القرآن مخلوق." وهذا يُكذب كل الروايات التي تتهم الإمام أبا حنيفة بالكفر، والعياذ بالله . بل إنَّ الإمام أحمد حصل له نوع من التعاطف والتقدير لموقف أبي حنيفة المشرف من السلاطين الظلمة. فقال إسماعيل بن سالم البغداديُّ: "ضُرب أبو حنيفة على الدخول في القضاء، فلم يقبل القضاء ."قال: "وكان أحمد بن حنبل إذا ذكر ذلك بكى، وترحَّم على أبي حنيفة، وذلك بعد أن ضُرِبَ أحمد."

٤. مسألة استتابته من الكفر مرتين

بالنسبة لمسألة استتابته من الكفر، فقد رد الأئمة الأحناف على هذه الفرية : قال الفقيه المحقِّق علي بن محمد القاري في مناقب الإمام: "قال أبو الفضل الكرماني: لما دخل الخوارج الكوفة مع الضحاك –ورأيهم تكفير كل من أذنبَ وتكفير كل من لم يُكفِّر مرتكب الذنب– قيل لهم: هذا شيخ هؤلاء، فأخذوا الإمام أبا حنيفة وقالوا له: تب من الكفر، فقال: أنا تائب من كلِّ كفر، فقيل لهم: إنه تائب من كفركم، فأخذوه فقال لهم: أبعلمٍ قلتم أم بظنٍّ؟ قالوا: بظنٍّ، قال: إنَّ بعض الظن إثم، والإثم ذنب فتوبوا من الكفر، قالوا: تب أنت أيضًا من الكفر، فقال: أنا تائب من كل كفر. فهذا الذي قاله أهل الضلال من أنَّ الإمام استُتيب من الكفر مرتين، ولبّسوا على العامَّة من الناس ."ا.هـ

– وفاته رحمه الله

تُوفِّي رحمه الله ببغداد سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م. وله من العمر سبعون سنة، يقول ابن كثير: "وصُلِّي عليه ببغداد ست مرات لكثرة الزحام، وقبره هناك رحمه الله) ."البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٠ صـ ١١١"

٢. الإمام مالك بن أنس

- نسبه وقبيلته

هو شيخ الإسلام، حجة الأمة، إمام دار الهجرة أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة، وهو حمير الأصغر الحميري ثم الأصبحي المدني، حليف بني تيم من قريش، فهم حلفاء عثمان أخي طلحة بن عبيد الله أحد العشرة.

وأمه هي : عالية بنت شريك الأزدية . وأعمامه هم: أبو سهيل نافع وأويس، والربيع، والنضر، أولاد أبي عامر.

- مولده ونشأته

ولد مالك بن أنس رحمه الله -كما عند أكثر العلماء - سنة (٩٣هـ) بالمدينة المنورة، فرأى آثار الصحابة والتابعين، كما رأى آثار النبي -صلى الله عليه وسلم- والمشاهد العظام، فكان لذلك أثر في فكره وفقهه وحياته، فالمدينة مبعث النور ومهد العلم ومنهل العرفان.

نشأ في بيت اشتغل بعلم الأثر، وفي بيئة كلها للأثر والحديث، فجدُّهُ مالك بن أبي عامر من كبار التابعين، روى عن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وعائشة أم المؤمنين، وقد روى عنه بنوه أنس أبو مالك الإمام، وربيع، ونافع المكنى بأبي سهيل، ولكن يبدو أن أباه أنسًا لم يكن مشتغلًا بالحديث كثيرًا، ومهما يكن حاله من العلم ففي أعمامه وجدِّه غناء، ويكفي مقامهم في العلم لتكون الأسرة من الأسر المشهورة بالعلم، ولقد اتجه من قبل مالك من إخوته أخوه النضر، فقد كان ملازمًا للعلماء يتلقى عليهم.

حفظ الإمام مالك القرآن الكريم في صدر حياته -كما هو الشأن في أكثر الأسر الإسلامية -، ثم اتجه إلى حفظ الحديث، فوجد من بيئته محرِّضًا، ومن المدينة مُوعزا ومُشجعًا، لمَّا ذكر لأمه أنه يريد أن يذهب فيكتب العلم ، ألبسته أحسن الثياب، وعمَّمَته، ثم قالت: "اذهب فاكتب الآن "، وكانت تقول: "اذهب إلى ربيعة فتعلم أدبه قبل علمه". "المدارك" (ص/١١٥)

جالس ابن هرمز سبع سنين في بداية نشأته، أخذ عنه اختلاف الناس، والرد على أهل الأهواء، وتأثر بهديه وسمته، حتى قال: "سمعت ابن هرمز يقول: ينبغي أن يورث العالم جلساءه قول: لا أدري حتى يكون ذلك أصلًا في أيديهم يفزعون إليه، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال لا أدري. قال ابن وهب: "كان مالك يقول

في أكثر ما يسأل عنه لا أدري."

ولازم نافعا مولى ابن عمر وكان يقول: "كنت آتي نافعا نصف النهار وما تظلني الشجرة من الشمس، أَتَحَيَّنُ خروجَه، فإذا خرج أدَعُهُ ساعة كأني لم أره، ثم أتعرض له فأسلم عليه وأدعه، حتى إذا دخل أقول له: كيف قال ابن عمر في كذا وكذا، فيجيبني، ثم أحبس عنه، وكان فيه حدة ". "الديباج المذهب" (ص/١١٧)

– صفته الشكلية

قال مصعب الزبيري: "كان مالك من أحسن الناس وجهًا، وأحلاهم عينًا، وأنقاهم بياضًا، وأتمهم طولاً في جودة بدن". وقال أبو عاصم: "ما رأيت محدثًا أحسن وجهًا من مالك."

وكان الإمام مالك يُعنى بلباسه عنايةً تام، ويَرى بذلك إعظامَ العلم ورفعةَ العالم، ويقول إن مروءة العالم أن يختار الثوبَ الحسنَ يرتديه ويظهر به.

– صفته الخلقية

١. الهيبة والوقار

قال سعيد بن أبي مريم: "ما رأيت أشد هيبة من مالك، لقد كانت هيبته أشد من هيبة السلطان". وقال الشافعي: "ما هبت أحدًا قَطُّ هيبتي مالك بن أنس حين نظرت إليه."

٢. قوةالحفظ

كان الإمام مالك إذا استمع إلى شيء استمع إليه بحرص ووعاه وعيًا تامًا، حتى إنه ليسمع نيفًا وأربعين حديثًا مرة واحدة، فيجيء في اليوم التالي ويُلقي على من استمعها منه، وهو ابن شهاب الزهري، أربعين حديثًا، مما يدل على قوة حفظه ووعيه، حتى قال له الزهري: "أنت من أوعية العلم، وإنك لنعم المستودَع للعلم".

٣. الصبر

كان الإمام مالك صبورًا مثابرًا، مغالبًا لكل الصعاب، غالَبَ الفقر حتى باع أخشاب سقف بيته في سبيل العلم، وكان يذهب في الهجير إلى بيوت العلماء، ينتظر خروجهم، ويتبعهم حتى المسجد، وكان يجلس على باب دار شيخه في شدة البرد، ويتقي برد المجلس بوسادة يجلس عليها، وكان يقول: "لا يبلغ أحد ما يريد من هذا العلم حتى يضر به الفقر، ويؤثره على كل حال"

٤. الذكاء والفراسة

اتصف الإمام مالك بقوة الفراسة، ولقد قال الإمام الشافعي في فراسته: لما سِرتُ إلى المدينة ولقيت مالكًا وسمع كلامي، نظر إلي ساعةً، وكانت له فراسة، ثم قال لي: «ما اسمك؟»، قلت: «محمد»، قال: «يا محمد، اتق الله، واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك الشأن من الشأن». ولقد قال أحد تلاميذه: "كان في مالك فراسةٌ لا تخطئ"

- عبادة الإمام مالك

قال أبو مصعب: "كان مالك يطيل الركوع والسجود في ورده، وإذا وقف في الصلاة كأنه خشبة يابسة لا يتحرك منه شيء". وقالت فاطمة بنت مالك: "كان مالك يصلي كل ليلة حزبه، فإذا كانت ليلة الجمعة أحياها كلها."

قال ابن المبارك: "رأيت مالكًا فرأيته من الخاشعين، وإنما رفعه الله بسريرة كانت بينه وبين الله، وذلك أني كثيرًا ما كنت أسمعه يقول: من أحبَّ أن يفتح له فرجة في قلبه، وينجو من غمرات الموت، وأهوال يوم القيامة، فليكن في عمله في السر أكثر منه في العلانية."

- سعة علم الإمام مالك

طلب الإمام مالك العلم وهو حدث لم يتجاوز بضع عشرة سنة من عمره وتأهل للفتيا وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة وقصده طلبة العلم وحدث عنه جماعة وهو بعد شاب طري.

ومن ثناء العلماء عليه:-

عن ابن عيينة قال مالك عالم أهل الحجاز وهو حجة زمانه .

وقال الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم .

وعن ابن عيينة أيضا قال كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحا ولا يحدث إلا عن ثقة ما أرى المدينة إلا ستخرب بعد موته يعني من العلم .

روي عن وهيب وكان من أبصر الناس بالحديث والرجال أنه قدم المدينة قال فلم أرى أحدًا إلا تعرف وتنكر إلا مالكا ويحيى بن سعيد الأنصاري.

- مشايخه

أخذ مالك بن أنس العلم عن نافعٍ (مولى عبدالله بن عمر)، وسعيدٍ المقبُري، وعامر بن عبدالله بن الزبير، وابن المنكدر، والزهري، وعبدالله بن دينارٍ، وإسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة، وأيوب السَّخْتِياني عالم البصرة، وربيعة الرأي، وزيد بن أسلم، وسلمة بن دينارٍ أبو حازمٍ، وسهيل بن أبي صالحٍ، وصالح بن كيسان، وصفوان بن سليمٍ، وأبي الزناد عبدالله بن ذكوان، وعبدالرحمن بن القاسم، وعبدالرحمن بن أبي صعصعة، وعطاء الخراساني، وعلقمة بن أبي علقمة، ومحمد بن أبي بكرٍ بن حزمٍ، وآخرين كثيرين؛"سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٨ ص: ٥٢، ٤٩"

- تلاميذه

كان أكثر الأئمة الذين ظهروا في عصر الإمام مالك تلامذة له، وقد كان تلاميذه من شتى بقاع الأرض لا يعدون ولا يحصون والذي ساعده على ذلك أنه كان مقيمًا بالمدينة المنورة وكان الحجاج يذهبون لزيارة مسجد الرسول

–صلى الله عليه وسلم– فيجلسون نحوه يتعلمون منه العلم، فمنهم من كان يطول به المقام عنده ومنهم من كان يقصر به المقام.

والذي جعل أيضًا تلاميذ الإمام مالك كثيري أن مالكًا كان معمرًا فلقد عاش تسعين عامًا. وأحصى الذهبي ما يزيد عن ألف وأربعمائة تلميذًا، منهم: محمد بن ادريس الشافعي صاحب المذهب الشافعي، عبد الرحمن بن القاسم، عبد الله بن وهب، أشهب بن عبد العزيز القيسي، أسد بن الفرات، عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون، ابن ابي اياس أبو الحسن الخرساني.، ابن الوليد أبو يحمد الحميري، ابن خداش أبو الهيثم المهلبي.

أبو عبد الله اللخمي، سعيد ابن شعبة أبو عثمان الخرساني، سليمان بن جارود أبو داوود الطياليسي، ابن ذكوان أبو عبد الله الترميذي، بن حماد أبو يحي النرسي، بن جبلة عبدان المروزي، عبد الله بن نافع الزبيري، بن عمرو القيسي أبو عامر العقدي، وكيع بن جراح أبو سفيان الرؤاسي.

– مصنفاته ومؤلفاته

أهم مؤلفاته وأجل آثاره كتابه الشهير الموطأ الذي كتبه بيده حيث اشتغل في تاليفه ما يقرب من ٤٠ سنة. وهو الكتاب الذي طبقت شهرته الآفاق واعترف الأئمة له بالسبق على كل كتب الحديث في عهده وبعد عهده إلى عهد الامام البخاري.

قال الإمام الشافعي: ما ظهر على الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك، وفي رواية أكثر صوابًا وفي رواية أنفع. وهذا القول قبل ظهور صحيح البخاري.

قال البخاري "أصح الأسانيد كلها: مالك عن نافع عن ابن عمر"، وكثيرا ما ورد هذا الإسناد في الموطأ.

قال القاضي أبو بكر بن العربي في شرح الترمذي: الموطأ هو الأصل واللباب وكتاب البخاري هو الأصل الثاني في هذا الباب، و عليهما بنى الجميع كمسلم والترمذي.يعتبر شرح الزرقاني أهم شرح له.

من مؤلفاته أيضًا:

الرد على القدرية، رسالة في القدر، كتاب النجوم والحساب مدار الزمن، رسالة في الاقضية في ١٠اجزاء، تفسير غريب القران.

– مما قاله الإمام مالك:–

١. كل أحدٍ يؤخذ من قوله ويُترَك، إلا صاحب هذا القبر –صلى الله عليه وسلم–؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٨ صـ ٩٣)

٢. العلم نورٌ يجعله الله حيث يشاء، ليس بكثرة الرواية؛ (حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ٦ صـ ٣١٩)

٣. حق على من طلب العلم أن يكون له وقارٌ وسكينة وخشية، والعلم حسَن لِمَن رُزق خيره، وهو قسم من الله، فلا تمكِّن الناس من نفسك؛ فإن مِن سعادة المرء أن يوفَّق للخير، وإن من شِقْوة المرء ألا يزال يخطئ، وذلٌّ

وإهانةٌ للعلم أن يتكلَّمَ الرجل بالعلم عند مَن لا يُطيعه؛ (حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ٦ ص ٣٢٠)

٤. إذا لم يكن للإنسان في نفسه خيرٌ، لم يكُنْ للناس فيه خير؛ (حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ٦ ص ٣٢١)

٥. جاء رجلٌ إلى مالكٍ وسأله عن مسألةٍ، قال: فقال له: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كذا،فقال الرجل: أرأيت؟ قال مالك: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]؛ (حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ٦ ص ٣٢٦)

٦. قال مالك بن أنس لفتًى من قريشٍ: يا بن أخي، تعلَّمِ الأدبَ قبل أن تتعلمَ العلم؛ (حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ٦ ص ٣٣٠

٧. قال ابن وهبٍ: سمعتُ مالكًا يقول: ما تعلمت العلم إلا لنفسي، وما تعلمتُ ليحتاج الناسُ إليَّ، وكذلك كان الناسُ (أي العلماءُ)؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٨ ص ٦٦.)

- مما قيل فيه

١. قال سفيان بن عيينة: وما نحن عند مالك بن أنسٍ؟! إنما كنا نتَّبِع آثار مالكٍ وننظر الشيخ، إذا كان كتب عنه مالك كتبنا عنه؛ (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر ص٢١)

٢. قال الشافعي: لولا مالكٌ وابن عيينة، لذهب علم الحجاز؛ (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر ص ٢١)

٣. قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: إذا جاءك الحديث عن مالكٍ، فشُدَّ به يديك، وسمعتُ الشافعي يقول: إذا جاءك الخبرُ، فمالكٌ النجمُ؛ (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر ص ٢٣.)

٤. وقال الشافعي: مالك بن أنسٍ معلِّمي، وعنه أخذتُ العلم؛ (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر ص ٢٣)

٥. قال عبيدالله بن عمر القواريري: كنا عند حماد بن زيدٍ، فجاءه نعيُ مالك بن أنسٍ، فسالَتْ دموعه، وقال: يرحم اللهُ أبا عبدالله، لقد كان من الدِّين بمكانٍ، ثم قال حماد: سمعتُ أيوب يقول: لقد كانت له حلقةٌ في حياة نافعٍ (مولى عبدالله بن عمر)؛ (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر ص ٢٢

٦. قال البخاري: مالك بن أنسٍ،كنيته أبو عبدالله،كان إمامًا، روى عنه يحيى بن سعيدٍ الأنصاري؛ (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر ص ٣١)

وقال البخاري: أصحُّ الأسانيد كلها: مالك، عن نافعٍ، عن ابن عمر؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٨ ص ١١٤)

٧. قال محمد بن الحسن: أقمتُ على مالك بن أنسٍ ثلاث سنين وكسرًا، وكان يقول: إنه سمع منه لفظًا أكثرَ من سبعمائة حديثٍ، قال: وكان إذا حدَّثهم عن مالكٍ امتلأ منزله، وكثُر الناس عليه حتى يضيقَ عليهم الموضع، وإذا حدَّث عن غير مالكٍ لم يجِئْه إلا اليسيرُ؛ (حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ٦ ص ٣٣٠)

٨. قال عبدالرحمن بن مهدي: لا أقدِّم على مالكٍ في صحة الحديث أحدًا؛ (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة

الفقهاء لابن عبدالبر صـ ٢٥.)

٩. قال يحيى بن سعيدٍ القطان: كان مالك بن أنسٍ إمامًا في الحديث؛ (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر صـ ٢٦)

١٠. قال أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني رحمه الله: رحم الله مالكًا كان إمامًا، رحم الله الشافعي كان إمامًا، رحم الله أبا حنيفة كان إمامًا؛ (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر صـ ٣٢)

١١. قال أبو زرعة الرازي: أول شيءٍ أخذت نفسي بحفظه من الحديث: حديث مالكٍ، فلما حفِظتُه ووعيتُه، طلبت حديث الثوري وشعبة وغيرهما، فلما تناهيت في حفظ الحديث، نظرتُ في رأي مالكٍ والثوري والأوزاعي، وكتبتُ كُتب الشافعي؛ (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر صـ ٣٢)

١٢. قال أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتمٍ الرازي: سمعت أبي يقول: الحجة على المسلمين الذين ليس فيهم لبسٌ؛ سفيان الثوري، وشعبة، ومالك بن أنسٍ، وسفيان بن عيينة، وحماد بن زيدٍ؛ (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر صـ ٣٢)

١٣. قال أبو بكرٍ الأثرم: سمعتُ أحمد بن حنبلٍ يقول: مالك بن أنسٍ أحسن حديثًا عن الزهري من ابن عيينة، قلتُ: فمعمَرٌ؟ قال: مالكٌ أتقنُ؛ (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر صـ ٢٩)

١٤. قال أسد بن الفرات: إذا أردتَ الله والدار الآخرة، فعليك بمالك بن أنس؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٨ صـ ٩٤)

١٥. قال يحيى بن معينٍ: مالك بن أنس من حُجَج الله على خَلْقه؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٨ صـ ٩٤)

١٦. قال أبو عمر بن عبدالبر: كان مالك يفتي في زمانٍ كان يفتي فيه يحيى بن سعيدٍ الأنصاري، وربيعة بن أبي عبدالرحمن، ونافع مولى ابن عمر، ومثلهم؛ (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر صـ ٢٧)

- مواقف من حياة الإمام

(١) موقفه مع الربيع

قال حسين بن عروة: قدم المهدي المدينة، فبعث إلى مالكٍ بألفي دينارٍ، أو بثلاثة آلاف، ثم أتاه الربيع بعد ذلك، فقال له: أميرُ المؤمنين يجب أن تعادلَه (تصاحبه في سفره) إلى مدينة السلام (بغداد)، فقال له مالك: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والمدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون"، والمال عندي على حاله .الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر صـ ٤٢"

(٢) موقف الإمام مالك مع أبي جعفر المنصور

قال مالك بن أنس: لما حج أبو جعفرٍ المنصور، دعاني، فدخلت عليه فحادثته، وسألني فأجبته، فقال: إني عزمتُ أن آمر بكتبك هذه التي قد وضعت، يعني الموطأ، فتُنسَخ نُسَخًا، ثم أبعث إلى كل مصرٍ من أمصار المسلمين منها نسخةً، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوها إلى غيرها، ويدَعوا ما سوى ذلك من هذا العلم

المحدث؛ فإني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم،
قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل هذا؛ فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، وروَوْا رواياتٍ، وأخذ كل قومٍ بما سبق إليهم، وعمِلوا به ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وغيرهم، وإنَّ ردَّهم عما اعتقدوه شديد، فدَعِ الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلدٍ لأنفسهم،
فقال: لَعَمْري، لو طاوعتني على ذلك، لأمرتُ به "الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر ص ٤١"

(٣) موقفه مع من دعاه إلى العزلة عن الناس

كتب عبدالله العمري العابد إلى مالك بن أنس يحضه على الانفراد والعمل، فكتب إليه مالك: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرُبَّ رجلٍ فُتح له في الصلاة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد .
فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيتُ بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خيرٍ وبرٍّ؛ "سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٨ ص ١١٤"

(٤) موقفه مع من سأله على الاستواء

قال جعفر بن عبدالله: كنا عند مالك بن أنسٍ فجاءه رجل فقال: يا أبا عبدالله،" الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى " طه: ٥، كيف استوى؟! فما وجد مالكٌ من شيءٍ ما وجَد من مسألته، فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعودٍ في يده حتى علاه الرُّحَضاء – يعني العَرَق – ثم رفع رأسه ورمى بالعود، وقال: الكيف منه غير معقولٍ، والاستواء منه غير مجهولٍ، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنُّك صاحبَ بدعةٍ، وأمَر به فأُخرج "حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ٦ ص ٣٢٦: ٣٢٥"

– أبرز المحن التي تعرض لها الإمام وموقفه منها

بعد أن ارتفعت مكانة ومنزلة الإمام مالك عند الخاصة والعامة، حتى جلس الخلفاء بين يديه، وقرأ الأمراء له، وأخذ الخلفاء بمشورته، وصدع الناس لما أمرهم به حسده على ذلك بعض أهل العلم ممن يؤثرون الدنيا، ويسعون إليها، ووشوا به عند أمير المدينة جعفر بن سليمان في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور؛ وذلك سنة ١٤٧هـ،
وكانت التهمة: أن مالكًا لا يرى أيمان البيعة للخلافة هذه بشيء

ولكن هل قال مالك ذلك حقًّا؟

إن الذي أفتى به الإمام مالك –رحمه الله– أن يمين المكره لا تلزمه، وذلك عملًا بالحديث الموقوف على ابن عباس: "ليس لمكره، ولا لمضطهد طلاق"؛ وهو صحيح عن ابن عباس، ولا يصح رفعه، وقد علقه البخاري في

كتاب الطلاق، وفي رواية أخرى عن ابن عباس: "ليس على مستكره طلاق."

ولم يكن سبب المحنة هو التحديث بهذا الحديث وحده، ولكن التحديث به وقت الفتن، واستخدام الثائرين لذلك الحديث، ولمكانة الإمام مالك العلمية تحريضًا الناس على الخروج على الخليفة؛ فلما بلغ الأمر السلطة الحاكمة أمر أبو جعفر المنصور الإمام مالكًا ألا يحدث الناس بهذا الحديث، وبهذه الفتوى، ونهاه عن ذلك بشدة، فلم يستجب مالك -رحمه الله- لهذه الضغوط، ولم يسكت؛ فقد كان يرى في السكون عنه كتمانًا للعلم الذي استودعه إياه الله عز وجل.

ولعلم أبي جعفر المنصور أن الإمام مالك لن يسكت عن نشر العلم أمر واليه على المدينة: جعفرًا بن سليمان أن يدس على مالك من يسأله عن هذا الحديث على رءوس الناس، وبالفعل أجاب مالك على المسألة، وروى حديث ابن عباس، وعندها أرسل جعفر بن سليمان من قبض على الإمام مالك، واحتج عليه بما رفع إليه عنه، فلم ينكر الإمام، ولم يخش في الله -عز وجل- لومة لائم، فأمر جعفر بتجريده من ملابسه، وضربه بالسياط، وجذبت يده حتى انخلعت من كتفه، وعذبه عذابًا شديدًا، وأهانه، وتعمد إسقاط هيبته ومنزلته بكل هذه الإساءات، ولكن الله- عز وجل- قد رفع قدر مالك بعد هذه المحنة، وازداد رفعة بين العالمين، وهذه ثمرة المحنة المحمودة؛ فإنها ترفع صاحبها عند المؤمنين.

عندما علم أهل المدينة بما جرى للإمام مالك اشتد سخطهم على الوالي، وتطاولوا عليه، بل وعلى الخليفة نفسه، خاصة وأن مالكًا قد أصيب في هذه المحنة بعجز كبير في ذراعه: بحيث لم يقدر بعدها على رفعها إلا بمساعدة ذراعه الأخرى، وقد جلس في بيته، وشعر الخليفة أبو جعفر المنصور بمرارة ما فعل؛ فأرسل إلى الإمام مالك يعتذر إليه، ويتنصل مما فعله واليه، ولما جاء أبو جعفر إلى الحجاز حاجًا أرسل إلى مالك، واجتمع معه، وبالغ له في الاعتذار؛ وذلك كله لتطييب خاطر العامة أولًا، ثم الإمام ثانيًا، وإلا فجميع ما وقع بعلمه وبأمره. والله أعلم.

- أبرز الشبهات التي تعرض لها والرد عليها

- الشبهة:

قال بعضهم: زعمتم أن الإمام مالك ممن يمر نصوص الصفات كما جاءت بلا تأويل ولا تعطيل ولا تكييف، وليس عندكم مما تتمسكون به في هذا الباب إلا كلامه في الاستواء وقد ورد في كتبه المالكية ما يدل على أنه متأول منزه!!، حيث أنكر التحديث بحديث الصورة فما جوابكم؟

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

للإمام مالك كتاب عظيم تعرفه الأمة، وهو موطأه الشهير، شحنه بجملة من أحاديث الصفات منها حديث النزول وهو قوله صلى الله عليه وسلم : (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا) ومنها حديث الجارية وسؤاله لها (أين الله؟ فقالت في السماء)

قال أبو عمر ابن عبد البر الحافظ المالكي في شرحه لرواية إمامه هذه : (معاني هذا الحديث واضحة يستغنى عن الكلام فيها وأما قوله: "أين الله فقالت في السماء" فعلى هذا أهل الحق لقول الله عز وجل: {أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} ولقوله: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ} ولقوله: {تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} ومثل هذا في القرآن كثير

وقال الإمام الترمذي في سننه : ((هذا حديث حسن صحيح وقد روي عن عائشة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- نحو هذا وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبه هذا من الروايات من الصفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا قالوا قد تثبت الروايات في هذا ويؤمن بها ولا يتوهم ولا يقال كيف هكذا روي عن مالك وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك أنهم قالوا في هذه الأحاديث أمروها بلا كيف وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة.

وقالوا تروى هذه الأحاديث ونؤمن بها ولا يقال كيف وهذا الذي اختاره أهل الحديث أن تروى هذه الأشياء كما جاءت ويؤمن بها ولا تفسر ولا تتوهم ولا يقال كيف وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه ومعنى قوله في الحديث فيعرفهم نفسه يعني يتجلى لهم)

وقال الإمام بن القيم -رحمه الله-:

فقيل له: السمع والبصر معلوم، والكيف غير معقول، وكذلك من سأل عن العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والنزول، والغضب، والرضى، والرحمة، والضحك، وغير ذلك، فمعانيها كلها مفهومة، وأما كيفيتها فغير معقولة؛ إذ تعقُّل الكيفية فرع العلم بكيفية الذات وكنهها، فإذا كان ذلك غير معقول للبشر، فكيف يعقل لهم كيفية الصفات؟!.والعصمة النافعة في هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل تثبِتُ له الأسماء والصفات، وتنفِي عنه مشابهة المخلوقات.فيكون إثباتُك منزَّهاً عن التشبيه، ونفيُك منزَّهاً عن التعطيل، فمن نفى حقيقة الاستواء فهو معطِّل، ومن شبّهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثِّل، ومن قال :استواء ليس كمثله شيءٌ فهو الموحِّد المنزِّه.وهكذا الكلام في السمع والبصر والحياة والإرادة والقدرة واليد والوجه والرضى والغضب والنزول والضحك، وسائر ما وصف الله به نفسه" مدارج السالكين ٢/٨٦.

(فيما اجتمعت الأئمة)

أن الله تبارك وتعالى له الأسماء الحسنى، والصفات العلى لم يزل بجميع صفاته وهو سبحانه وتعالى ، موصوف بأن له علما وقدرة وإرادة ومشيئة ، لم يزل بجميع صفاته وأسمائه ، له الأسماء الحسنى ، والصفات العلى ، أحاط علما بجميع ما برأ قبل كونه ،وفطر الأشياء بإرادته وقوله (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) النحل: ٤٠، وأن كلامه صفة من صفاته ، ليس بمخلوق فيبيد ، ولا صفة لمخلوق فينفد ، وأن الله عز

وجل كلم موسى بذاته ، وأسمعه كلامه لاكلاما قام في غيره.

وأنا القرآن الكريم كلام الله ليس بمخلوق وأن الله عزوجل يسمع ويرى ويقبض ويبسط وأن يديه مبسوطتان، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه وأن يديه غير نعمتيه في ذلك ، وفي قوله سبحانه (مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) ص:٧٥، وأن نثبت لله ما أثبته الله لنفسه في كلامه أو على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم دون تكييف أو تعطيل أو تحريف، وأنه يجيء يوم القيامة "بعد أن لم يكن جائيا "وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا" الفجر:٢٢، لعرض الأمم وحسابها وعقوبتها وثوابها ، فيغفر لمن يشاء من المذنبين ، ويعذب منهم من يشاء

وأن الله تبارك وتعالى يرضى عن الطائعين ، ويحب التوابين ويسخط على من كفر به ويغضب فلا يقوم شيء لغضبه

وأنه فوق سماواته على عرشه دون أرضه. وأنه سبحانه يكلم العبد يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان . إلى أن قال: وكل ما قدمنا ذكره فهو قول أهل السنة وأئمة السنة في الفقه والحديث على ما بيناه.

- وفاته رحمه الله

توفي مالك بن أنس صبيحة أربع عشرة من شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة، في خلافة هارون الرشيد، وصلى عليه أميرُ المدينة يومئذ، عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس، في موضع الجنائز، ودُفن بالبقيع، وكان الإمام مالك يوم مات ابنَ خمس وثمانين سنة. "الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر صـ ٤٥."

٣. الإمام الشافعي

- اسمه ونسبه

هو محمَّد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبديزيد بن هاشم بن المطلب بن عبدمناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، ويجتمع مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في عبدمناف بن قصي؛ "الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر ص ٦٦".

وكنيته أبي عبد الله.

- مولده ونشأته

وُلد الشَّافعي بغزة بفلسطين، سنة خمسين ومائةٍ من الهجرة، وهو العام الذي توفِّي فيه أبو حنيفة -رحمه الله-؛ "الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر ص ٦٧"

مات أبوه إدريس شابًّا، فنشأ محمَّدٌ يتيمًا في حجر أمه، فخافت عليه الضَّيعة، فتحولت به إلى محتِدِه وهو ابن عامين، فنشأ بمكة، وأقبل على الرمي، حتى فاق فيه الأقران، وصار يُصيب من عشَرة أسهمٍ تسعةً، ثم أقبل على العربية والشرع، فبرع في ذلك، وتقدم، ثم حُبِّب إليه الفقه، فساد أهل زمانه؛ "سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٠ ص ٦".

- أخلاقه

١. كرمه وجوده

قال عمرو بن سوادٍ السرجي: "كان الشَّافعي أسخى الناس على الدينار والدرهم والطعام"؛ "حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ٩ ص ١٣٢"

٢. ذكاؤه:

قال حرملة بن يحيى: سئل الشَّافعي عن رجلٍ في فمه تمرةٌ، فقال: إن أكلتها، فامرأتي طالقٌ، وإن طرحتها، فامرأتي طالقٌ، قال: يأكل نصفًا، ويطرح النصف؛ "حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ٩ ص ١٤٣"

٣. قوة حفظه

قال يونس بن عبدالأعلى: كان الشَّافعي يصنع كتابًا من غدوةٍ إلى الظهر من حفظه، من غير أن يكون في يده أصلٌ"؛"حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ٩ ص ١٢٩".

٤. اعترافه بالفضل لمشايخه

قال يونس بن عبدالأعلى: سمعت الشَّافعي يقول: "ما نظرت في موطأ مالكٍ إلا ازددت فهمًا"؛ "حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني جـ ٩ صـ ٧٠."

قال يونس بن عبدالأعلى: سمعت الشَّافعي يقول: "لولا مالكٌ وابن عيينة، لذهب علمُ الحجاز"؛ "حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني جـ ٩ صـ ٧٠."

٥. حلمه وسماحة نفسه

– قال يونس الصدفي: "ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوما في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق في مسألة ". تاريخ دمشق لابن عساكر

– قال أبو ثور: "قَلَّ ما كان يمسك الشافعي الشئ من سماحته ". آداب الشافعي " ص ١٢٦

– عبادته

١. قال الربيع بن سليمان: "كان الشَّافعي قد جزأ الليل ثلاثة أجزاءٍ؛ الثلث الأول يكتب، والثلث الثاني يصلي، والثلث الثالث ينام"؛ "حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني جـ ٩ صـ ١٣٥"

٢. قال الربيع بن سليمان: "كان محمَّد بن إدريس الشَّافعي يختم في شهر رمضان ستين ختمةً، ما منها شيءٌ إلا في صلاةٍ"؛ "حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني جـ ٩ صـ ١٣٤" .

٣. قال الربيع بن سليمان: قال لي الشَّافعي: عليك بالزهد؛ فإن الزهدَ على الزاهد أحسنُ من الحلي على المرأة الناهد (الشابة)؛ "حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني جـ ٩ صـ ١٣٠."

– علمه

١. قال إسماعيل بن يحيى: سمعت الشَّافعي يقول :حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ وأنا ابن عَشْر سنين؛ "تاريخ بغداد للخطيب البغدادي جـ ٢ صـ: ٦٣"

٢. قال أبو ثورٍ: كتب عبدالرحمن بن مهدي إلى الشَّافعي وهو شاب أن يضع له كتابًا فيه معاني القرآن، ويجمع قبول الأخبار، وحجة الإجماع، وبيان الناسخ والمنسوخ، فوضع له كتاب (الرسالة)؛ "سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ١٠ صـ ٤٤"

– مشايخه

أخَذ الشَّافعي العلم بمكة عن مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة، وداود بن عبدالرحمن العطار، وعمه محمَّد بن علي بن شافع، وسفيان بن عيينة، وعبدالرحمن بن أبي بكر المليكي، وسعيد بن سالم، وفضيل بن عياض، وآخرين.

وفي المدينة: أخذ العلم عن مالك بن أنس، وإبراهيم بن أبي يحيى، وعبدالعزيز الدراوردي، وعطاف بن خالد، وإسماعيل بن جعفر، وإبراهيم بن سعد، وطبقتهم .

وأخذ العلم باليمن عن: مطرف بن مازن، وهشام بن يوسف القاضي، وطائفة . وأخذ العلم ببغداد عن: محمَّد بن الحسن، فقيهِ العراق، ولازَمه، وعن إسماعيل ابنِ عُلَيَّةَ، وعبدالوهاب الثقفي، وآخرين؛ "سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٠ صـ ٧: ٦".

– تلاميذه

الحميدي، وأبو عبيدٍ القاسمُ بن سلام، وأحمد بن حنبل، وسليمان بن داود الهاشمي، وأبو يعقوب يوسف البويطي، وأبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي، وحرملة بن يحيى، وموسى بن أبي الجارود المكي، وعبدالعزيز المكي صاحب "الحيدة"، وحسين بن علي، وإسحاق بن راهويه، ويونس بن عبدالأعلى، والربيع بن سليمان المرادي، ومحمَّد بن عبدالله بن عبدالحكم، وبحر بن نصر الخولاني، وآخرين سواهم؛ "سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٠ صـ ٧: ٨"

– مصنفاته ومؤلفاته

لم يُعرف لإمام قبل الإمام الشافعي من المؤلفات في الأصول والفروع والفقه وأدلته، بل في التفسير والأدب ما عرف للشافعي كثرةً وبراعةً وإحكامًا؛ يقول ابن زُولاق: "صنف الشافعي نحوًا من مائتي جزء."

ولقد كان في سرعة التاليف مع الدقة والنضج والإتقان أعجوبة منقطع النظير، حتى إنه ربما أنجز كتابًا في نصف نهار. يقول يونس بن عبد الأعلى: "كان الشافعي يضع الكتاب من غدوة إلى الظهر."

ومن مؤلفاته –رحمه الله–:

كتاب (الرسالة) وهو أول كتاب وضع في أصول الفقه ومعرفة الناسخ من المنسوخ، بل هو أول كتاب في أصول الحديث. وألَّف كتابًا اسمه (جماع العلم)، دافع فيه عن السنة دفاعًا مجيدًا، وأثبت ضرورية حجية السنة في الشريعة. وكتاب (الأم) ، و(الإملاء الصغير)، و(الأمالي الكبرى)، و(مختصر المزني)، و(مختصر البويطي)، وغيرها.

– مما قيل فيه

١. قال قتيبة بن سعيد: الشَّافعي إمام؛ "تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٢ صـ: ٦٧."

٢. قال علي بن المديني (شيخ البخاري): عليكم بكتب الشَّافعي؛ "سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٠ صـ ٥٦"

٣. قال أحمد بن علي الجرجاني: كان الحميدي (شيخ البخاري) إذا جرى عنده ذِكر الشَّافعي يقول: حدثنا سيدُ الفقهاء الشَّافعيُّ؛ "تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٢ صـ: ٦٨."

٤. قال أحمد بن محمَّد ابن بنت الشَّافعي :سمعت أبي وعمي يقولان: كان سفيان بن عيينة إذا جاءه شيءٌ من التفسير والرؤيا يسأل عنها، التفتَ إلى الشَّافعي، فيقول: "سلُوا هذا"؛ "حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ٩ صـ ٩١."

٥. قال يونس الصدفي: ما رأيت أعقلَ مِن الشَّافعي، ناظرته يومًا في مسألةٍ، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفِقْ في مسألةٍ؛ "سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٠ ص ١٦."

٦. قال أحمد بن حنبل: ما أحدٌ مس محبرةً ولا قلمًا إلا وللشافعي في عنقه منَّةٌ؛ "سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٠ ص ٤٧."

٧. قال عبدالله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي :يا أبت، أي رجل كان الشَّافعي؛ سمعتك تكثر من الدعاء له؟! فقال: يا بنيَّ، كان الشَّافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من عِوَض؛ " تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٢ ص: ٦٦."

٨. قال الميموني: سمعت أحمد بن حنبل يقول: ستة أدعو لهم في السَّحَر، أحدهم الشَّافعي؛ "صفة الصفوة لابن الجوزي ج ٢ ص ٢٥٠"

٩. قال أحمد: كان الشَّافعي إذا تكلم كأن صوتَه صوتُ صنجٍ وجرسٍ، مِن حُسن صوته؛ "سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٠ ص ٤٩."

- مما قال الشافعي

١. كل متكلمٍ على الكتاب والسنة فهو الجِدُّ، وما سواه فهو هذَيانٌ؛ "سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٠ ص: ٢٠."

٢. طلب العلم أفضل من صلاة النافلة"؛ "حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ٩ ص ١١٩."

٣. مَن تعلَّم القرآن عظُمت قيمتُه، ومَن تكلم في الفقه نما قدرُه، ومن كتب الحديث قوِيَتْ حجتُّه، ومَن نظر في اللغة رقَّ طبعُه، ومن نظر في الحساب جزُل رأيُه، ومَن لم يصُنْ نفسَه لم ينفعه علمٌ؛ "سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٠ ص: ٢٤"

٤. وددتُ أن كل علمٍ أعلَمُه يعلَمُه الناس، أُوجَرُ عليه ولا يحمَدوني"؛ "حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ٩ ص ١١٩"

٥. إذا وجدتم في كتابي خلافَ سنَّة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقولوا بها، ودعُوا ما قلتُه؛ "سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٠ ص: ٣٤."

٦. العالم يُسأَل عما يعلَم وعما لا يعلم، فيُثبت ما يعلم، ويتعلم ما لا يعلم، والجاهل يغضب من التعلُّم، ويأنَف من التعليم؛ "سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٠ ص: ٤١"

- مواقف من حياة الإمام

(١) تعظيمه للكتاب والسنة

قال الحميدي: روى الشافعي يومًا حديثًا، فقلت: أتأخذ به؟ فقال: رأيتني خرجت من كنيسة، أو علي زنار، حتى إذا سمعت عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حديثًا لا أقول به. حلية الأولياء " ٩ / ١٠٦

وقال تلميذه أبو ثور: سمعته يقول: كل حديث عن النبي –صلى الله عليه وسلم– فهو قولي، وإن لم تسمعوه مني. ويروى أنه قال :إذا صح الحديث فهو مذهبي. السير ١٠ / ٣٥.

وحصلت قصة فيها حوار علمي بين الشافعي وإسحاق بن راهويه تبين مكانة الشافعي في تعظيم النصوص، فقد روى إبراهيم بن محمد الكوفي قال: رأيت الشافعي بمكة يفتي الناس، ورأيت أحمد، وإسحاق حاضرين.

فقال الشافعي: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (وهل ترك لنا عقيل من دار؟)

فقال إسحاق: حدثنا يزيد، عن الحسن، وأخبرنا أبو نعيم، وعبدة، عن سفيان، عن منصور، عن إبراهيم: أنهما لم يكونا يريانه، وعطاء، وطاووس، لم يكونا يريانه.

فقال الشافعي: من هذا؟ قيل: إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ابن راهويه.

فقال الشافعي: أنت الذي يزعم أهل خراسان أنك فقيههم، ما أحوجني أن يكون غيرك فيموضعك، فكنت آمر بعرك أذنيه أقول: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأنت تقول :عطاء، وطاووس، ومنصور، عن إبراهيم، والحسن، وهل لأحد مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حجة. مناقب " البيهقي ١ / ٢١٤.

(٢) تربيته للطلاب بالحوار:

يتضح من سيرته –رحمه الله– أنه مناظر بارع، ومحاور مقنع، وكان ينقل هذه الملكة لطلابه، فقد نقل عن المزني، قال: قلت: إن كان أحد يخرج ما في ضميري، وما تعلق به خاطري من أمر التوحيد فصرت إليه، وهو في مسجد مصر، فلما جثوت بين يديه، قلت: هجس في ضميري مسألة في التوحيد، فعلمت أن أحدا لا يعلم علمك، فما الذي عندك؟ فغضب، ثم قال: أتدري أين أنت؟ قلت: نعم. قال :هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون.

أبلغك أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أمر بالسؤال عن ذلك؟ قلت: لا .قال: هل تكلم فيه الصحابة؟

قلت: لا. قال: تدري كم نجما في السماء؟ قلت: لا .قال: فكوكب منها: تعرف جنسه، طلوعه، أفوله، مم خلق؟

قلت: لا. قال: فشيء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه، تتكلم في علم خالقه؟!

ثم سألني عن مسألة في الوضوء، فأخطأت فيها، ففرعها على أربعة أوجه، فلم أصب في شيء منه.

فقال: شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات، تدع علمه، وتتكلف علم الخالق، إذا هجس في ضميرك ذلك، فارجع إلى الله، وإلى قوله تعالى: "وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" [البقرة١٦٣: ١٦٤]

فاستدل بالمخلوق على الخالق، ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك. قال: فتبت. السير ١٠ / ٣٢.

(٣) نهيه عن تقليده:

لم يكن أحد من الأئمة يرضى بأن يقلده تلاميذه، وكلهم يربي طلبته على التفقه من الكتاب والسنة، فقد صح عن الشافعي –رحمه الله– قال:كل ما قلته فكان من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خلاف قولي مما صح، فهو أولى، ولا تقلدوني.

– من المحن التي تعرض لها الإمام وموقفه منها

(١) محنة اتهامه زورًا بعمل تنظيم شيعي لقلب نظام الحكم

الإمام الشافعي كان أعلم أهل عصره بلا منازع، وفي نفس الوقت كان شريف النسب، جميل الصورة، بهيَّ الطلعة، مما جعله موضع حسد الناس، وقد بدأت محنته عندما كان قاضيًا باليمن وقد صار أحدوثة اليمن مما جعل حُسَّاده يسعون في حقه عند الخليفة العباسيِّ هارون الرشيد، وكان الذي سعى بالوشاية ضد الشافعيِّ رجلٌ للأسف يُنسب لأهل العلم اسمه مطرف بن مازن دفعه الحسد والغيرة المذمومة للسَّعي في حقِّ الإمام الشَّافعيّ ، والتُّهمة كانت في غاية الخطورة، وهي قيادةُ تنظيمٍ شيعيٍّ باليمن لقلب نظام الحكم، وهي تُهمة كفيلةٌ بإزهاق روح الإمام أو حبسه لأجلٍ غير مسمى على أقلِّ تقدير، لذلك لما وصل الكلام للخليفة الرشيد أمر على الفور بالقبض على الشافعيِّ وكلِّ من ورد اسمه في وشاية الكذاب مطرف بن مازن، وذلك في سنة ١٨٣ هجرية.

حُمل الشَّافعيّ ومن معه مُكبَّلين بالحديد والأغلال من اليمن إلى مدينة (الرقة) في شمال بلاد العراق حيث مقرُّ إقامة الخليفة العباسي هارون الرشيد، ولنا أن نتخيل حجم المعاناة والألم البدني والنفسي الشديد الذي تعرَّض له الإمام الشافعي من جراء تلك الرحلة الطويلة الشاقة من أقصى الجنوب لأقصى الشمال، وهو بريء لا ذنب له. استعدَّ الشافعي لمواجهة كافة التهم الموجهة إليه، فانتضى سيف بلاغته، وركب فرس حجته، فما إن أُدخل على الخليفة الرشيد، حتى انطلق برائع بيانه يكشفُ بطلان ما وُجِّه إليه من تهم وافتراءات، حتى خلب لُبَّ الرشيد بدفاعه البليغ، خاصة عندما قال له: "أ أدع من يقول إنَّه ابن عمِّي –يقصد هارون الرشيد– وأتولَّى من يقول إنه خالقي ورازقي –يقصد إمام الشيعة الذي يُسبغ الشيعةُ الأغبياء عليه صفات القداسة" فانشرح صدرُ الرشيد، وطلب منه أن يُناظر الإمام محمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة في بعض المسائل، فأظهر الشافعيُّ براعة علمية فائقة فأمر الرشيد له بجائزة كبيرة تُقدر بخمسة آلاف دينار بمثابة رد اعتبار لذلك الإمام المظلوم وتبرئة لساحته أمام الناس.

كانت تلك المحنة فاتحةَ خير على الإمام الشافعي، وسببًا لانتشار علمه وتكوين مذهبه وقيام مدرسته الفقهية، حيث ظلَّ بالعراق ولم يَعُد إلى اليمن، إلا لجلب أهله وحاجاته ثم عاد إلى العراق لينتشرَ ذكره وأثره وعلمه، وتتهافت عليه الطلبةُ ويقبل عليه الناس، فأين حاسدُه ومبغضه الذي أراد إسكاتَ صوته وخنق علمه وفقهه في بلاد اليمن؟ ولكنها سُنَّه الله الماضية :أن يبوء الحاسدُ والحاقد بالخسران والندامة، ويُعلي الله –عز وجلَّ– شانَ أهل العلم الرَّبَّانيِّين على مرِّ العصور.

(٢) محنة عداوة تلاميذ الإمام مالك له

وفي سنة ١٩٨هـ ينتقلُ الشَّافعيُّ إلى مصر ليواصلَ نشر علمه، وتُقابله محنةٌ أخرى تمثلت في عداوة تلاميذ الإمام مالك له بسبب خوفهم من اندثار مذهبهم حتى إنهم كانوا يَدْعون عليه في صلواتهم بالموت، وبجانب ما كان يُعانيه الشَّافعيّ من مِحَن بسبب الحسد والغيرة، وآثار التهمة القديمة بالتشيع والرفض.

(٣) محنة مرضه المزمن

كان الشافعي يُعاني من محنة أخرى تُعتبر علامة من علامات محبة الله –عز وجل–، وهي محنة مرضه المزمن بالبواسير الشديدة التي سبَّبت له آلامًا مبرحة ونزيفًا مستمرًا للدِّماء حتى إنه كان لا يحدث أو يؤلف أو يقرأ القرآن إلا وتحته لبد أو طست من شدَّة النَّزف.

– من الشبهات التي تعرض لها والرد عليها

(١) شبهة تقسيم الشافعي للبدعة إلى بدعة ضلالة وبدعة حسنة

المنقول عنه في تعريف البدعة ما يلي:

أ – ما رواه أبو نعيم في الحلية بسنده عن الشافعي أنه قال: (البدعة بدعتان: بدعة محمودة، وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم، واحتج بقول عمر بن الخطاب في قيام رمضان نعمت البدعة هي)

ب – ما رواه ابن عساكر بسنده عن طريق البيهقي عن الربيع بن سليمان والذهبي في السير، بسنده عن الربيع قال: قال الشافعي: (المحدثات من الأمور ضربان: ما أحدث يخالف كتابًا أو سنة أو أثرًا أو إجماعا، فهذه البدعة ضلالة، وما أحدث لا خلاف فيه لواحد منها، فهذه محدثة غير مذمومة، قد قال عمر في قيام رمضان: (نعمت البدعة هذه) يعني أنها محدثة لم تكن، وإذا كانت فليس فيها رد لما مضى)

قال المبتدع: هذا تقسيم إمام معترف بفضله وعلمه وعدالته، من عقدت على إمامته ألوية الزمان، ودان لفقهه وفهمه أعلام هذا الدين في القديم والحديث.

وهذا التقسيم صريح في أن من البدع ما هو حسن مقبول في الشرع، وما هو قبيح مردود.

والجواب على هذا الاستدلال من عدة أوجه:–

الوجه الأول:

أن قول الشافعي –رحمه الله– عن البدعة المذمومة هي ما خالف السنة. وقوله عن المحدث المذموم، بأنه ما أحدث يخالف كتابًا أو سنة أو أثرًا أو إجماعًا، منطبق على سائر البدع في دين الله، فليس هناك بدعة إلا وهي مخالفة للكتاب والسنة والآثار والإجماع، وإلا لما كانت بدعة، لأنه لو ثبت لها أصل من هذه الأصول لأصبحت عملًا مشروعًا في دين الله. وهذا ما يتفق عليه علماء المسلمين قديمًا وحديثًا، وما يدل عليه قوله –صلى الله عليه وسلم–: "ما صنع أمر على غير أمرنا فهو رد" وعلى هذا الوجه لا حجة في كلام الشافعي لمحسن البدع، بل الحجة عليه في كلام هذا الإمام.

الوجه الثاني:

قول الشافعي –رحمه الله– أن ما وافق السنة فهو محمود، وقوله: ما أحدث لا خلاف فيه لواحد من هذا يعني الكتاب والسنة والأثر والإجماع فهذه محدثة غير مذمومة، قول فيه إجمال، يحتاج إلى بيان :فإن كان مراده بالبدعة والمحدثة معناهما اللغوي فهذا المعنى مقبول ووارد، وسياق الكلام يدل على أن هذا هو مراد الشافعي –رحمه الله–، حيث وصف البدعة المذمومة شرعًا، وبين معالمها، ووضح مسالكها، توضيحًا ستغرق سائر أنواع البدع، ثم عطف بذكر البدع المحمودة، مستدلًا عليها بحديث عمر –رضي الله عنه– وقد مر قبل قليل أن معنى الكلام إليه لتلائمه مع منزلته وعلمه، ومكانته في هذا الدين. وعلى هذا التوجيه نفسه يمكن حم لكلام الشافعي في قوله هذا، لاسيما وقد سبق بيانه للبدعة المذمومة شرعًا، وألحق في نهاية كلامه قول عمر –رضي الله عنه–، وإن كان مراده بقوله هذا معنى آخر غير المعنى اللغوي، فهذا ما يأتي بيانه.

الوجه الثالث:

وهو أن يكون مراده –رحمه الله– الحوادث التي استجدت وليس عليها بأعيانها أدلة من الكتاب أو السنة أو الآثار أو الإجماع، ولكنها تدخل تحت أصل من الدين، وتنضوي تحت قاعدة من قواعده، وهي ليست من العبادات المحضة.

فهذه الحوادث إذا كانت بهذه الصفة فهي محمودة من جهة الشرع، ولا تسمى بدعًا في الدين، وإن كانت تسمى بدعًا من جهة اللغة. وفي هذا الوجه تدخل المصالح المرسلة، بناء على أنها لم تدخل أعيانها لم تدخل أعيانها تحت النصوص المعينة، وإن كانت تلائم قواعد الشرع وهذا محمل آخر يمكن توجيه قول الشافعي إليه.

الوجه الرابع:

من الإنصاف ألا يحمل كلام هذا الإمام أكثر مما يحمل، وألا ينظر إلى كلامه هذا معزولًا عن بقية مقولاته، لا سيما إذا كان في بعض كلامه إجمال، وفي بعضه الآخر تفصيل، فإنه يجب حمل المجمل على المفصل، وتقديم المبين على المبهم، والمنطوق على المفهوم، والعبارة على الإشارة، ومن كلامه الذي يمكن ضمه إلى تعريفه هذا للدعة، ما جاء في الرسالة حيث قال عن الاستحسان الذي يجنح إلى التعلق به كل محسن للبدعة : (وهذا يدل على أنه ليس لأحد دون رسول الله أن يقول إلا بالاستدلال إلى أن قال: ولا يقول بما استحسن، فإن القول بما استحسن، فإن القول بما استحسن شيء يحدثه لا على مثال سبق.) وقال رحمه الله: (... وهذا يبين أن حرامًا على أحد أن يقول بالاستحسان إذا خالف الاستحسان الخبر، والخبر من الكتاب والسنة عين، يتأخى معناها المجتهد ليصيبه..) وقال: (وإنما الاستحسان تلذذ)

فهل يمكن بعد كل هذا أن يقال بأن الشافعي يستحسن البدع، ويمدحها ويثني عليها، ويجيز التقرب بها إلى الله؟.

وهل يعقل أن يكون مراد الشافعي بقوله في تعريف البدعة، تحسين المحدثات والحث على اعتناق ما تراه النفوس والعقول والأذواق حسنًا؟ .. إن المقارنة بين كلامه في تعريف البدعة وكلامه في ذم الاستحسان يوجب على العاقل معرفة قدر هذا الإمام، فلا يرمه بهذه الداهية الدهياء، ولا ينسب إليه ما هو منه براء.

ذكر الذهبي في ترجمته عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: "سمعت محمد ابن داوود يقول: لم يلحظ في دهر الشافعي كله أن تكلم في شيء من الأهواء ولا نسب إليه ولا عرف به، مع بغضه لأهل الكلام والبدع"

وذكر أن أحمد بن حنبل كان يقول: (ما رأيت أحدًا أتبع للأثر من الشافعي) وذكر ابن الإمام سحنون قال: (لم يكن في الشافعي بدعة) ، ولو كان الشافعي ممن يستحسن البدع، أو يجيز وقوع بعضها شرعًا، لما استحق من هؤلاء الأئمة هذه الأوصاف، ولنقل عنه ولو مرة واحدة، أنه وصف بدعة الدين بأنها حسنة محمود.

الوجه الخامس:

وضع الشافعي قواعد في أصول هذا الدين، تدل الناظر فيها على عكس ما توهم المبتدع، الذي يستشهد بما توهم من كلام الشافعي في تعريف البدعة، على استحسان بعض المحدثات، وهذا المحدثات وهذه القواعد تدل بجلاء على أن تعريف الشافعي للبدعة المحمودة، لا بد أن يحمل على غير ما ذهب إليه المحسن للبدع. فمن هذه القواعد قوله عليه رحمه الله: "وما نهى عنه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فهو على التحريم، حتى تأتي دلالة منه على أنه أراد به غير التحريم"

فإذا نظرت إلى قوله –صلى الله عليه وسلم–: "وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة"، وقوله: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"، وجدت أن النهي هنا للتحريم، ولم يرد نص واحد فيه دلالة على النهي ليس للتحريم، بل النصوص متضافرة على هذا المعنى، فهل يقال بعد هذه القاعدة، بأن الشافعي يرى تحسين ما حرمه الله؟ معاذ الله.

ومن القواعد الأصولية التي قالها الشافعي رحمه الله: (فكل كلام كان عامًا ظاهرًا في سنة رسول الله على ظهوره وعمومه، حتى يعلم حديث ثابت عن رسول الله بأبي هو وأمي يدل على أنه إنما أريد بالجملة العامة في الظاهر بعض الجملة دون بعض ..) وقوله –صلى الله عليه وسلم–: "كل بدعة ضلالة "، من العام الظاهر الذي لم يرد على الشرع كله، ما يدل ولا بمفهوم المخالفة على تخصيص شيء منه. وهذه القاعدة تنقض ما استدل به المحسن للبدع من كلام الشافعي –رحمه الله–.

الوجه السادس:

لو افترض جدلًا أن الشافعي أراد بقوله في تعريف البدعة ما ذهب إليه المبتدع، فإنه كلام بشر لا يمكن أن يعارض به النصوص الشرعية، لاسيما وقد قرر هذا الإمام المطلبي رحمه الله أنه: "إذا ثبت عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الشيء فهو اللازم لجميع من عرفه، لايقويه ولا يوهنه شيء غيره، بل الفرض الذي على الناس إتباعه، ولم يجعل الله لأحد معه أمرًا يخالف أمره" وقال رحمه الله فيما يرويه عنه الربيع بن سليمان: (إذا وجدتم في كتابي خلال سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقولوا به ودعوا ما قلته)

وقال: (كل ما قلت فكان عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خلاف قولي ما يصح، فحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى)

وقال: (كل حديث عن النبي –صلى الله عليه وسلم– فهو قولي، وإن لم تسمعوه مني)

وبمعنى هذا القول وهو من الكلام السائر في الآفاق قوله رحمه الله إذا صح الحديث فهو مذهبي، وإذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط.
وقال رحمه الله: كل مسألة تكلمت فيها وصح الخبر فيها عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عند أهل النقل بخلاف ما قلت، فأنا راجع عنها في حياتي وبعد مماتي)

(٢) شبهة تبرك الشافعي بقبر أبي حنيفة

قصةِ لا تثبتُ عن الإمامِ الشافعي، يتشدقُ بها البعض في مسألةِ التوسلِ بالأمواتِ الصالحين، ولا تكاد تجدُ مبتدعًا يتكلمُ عن التوسلِ إلا ويوردُ قصة توسل الشافعي بقبرِ أبي حنيفة لكي يحتجُ بها على أهلِ السنةِ في تجويزِ التوسلِ بالصالحين.

نَصُ القِصَّةِ :

أخرجَ الخطيبُ البغدادي في "تاريخ بغداد" (١٢٣/١) بسنده فقال: أخبرنا القاضي أبو عبد الله الحسين بن علي بن محمد الصيمري، قال : أنبأنا عمر بن إبراهيم المقرئ قال: نبأنا مُكرم بن أحمد قال: أنبأنا عمر بن إسحاق بن إبراهيم قال: نبأنا علي بن ميمون قال: سمعت الشافعي يقول: إني لأتبرك بأبي حنيفة، وأجيء إلى قبره في كل يوم – يعني زائرًا– فإذا عرضت لي حاجة صليتُ ركعتين وجئت إلى قبره ، وسألت الله تعالى عنده ، فما تبعد عني حتى تُقضى."

نَقْدُ العُلَمَاءِ لِلقِصَّةِ :

انتقد علماءُ أهلِ السنة القصة، وطعنوا في صحتها، وإليكم ما قاله أهل العلم فيها:

•كذب شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ –رحمه الله– القصة ورد على ما جاء فيها فقال في "اقتضاء الصراط المستقيم" ٦٩٢/٢"

فقال: "...ثم أصحاب أبي حنيفة الذين أدركوه مثل أبي يوسف ومحمد وزفر والحسن بن زياد وطبقتهم، ولم يكونوا يتحرون الدعاء لا عند أبي حنيفة ولا غيره . ثم قد تقدم عند الشافعي ما هو ثابت في كتابه من كراهة تعظيم قبور المخلوقين خشية الفتنة بها ، وإنما يضع مثل هذه الحكايات من يقل علمه ودينه.
وإما أن يكون المنقول من هذه الحكايات عن مجهول لا يعرف ،ونحن لو روي لنا مثل هذه الحكايات المسيبه أحاديث عمن لا ينطلق عن الهوى –صلى الله عليه وسلم– لما جاز التمسك بها حتى تثبت ، فكيف بالمنقول عن غيره ؟" ا.هـ. باختصار

• وقال الإمامُ ابنُ القيمِ في "إغاثة اللهفان" (٢٤٦/١)

والحكايةُ المنقولةُ عن الشافعي أنه كان يقصد الدعاءَ عند قبر أبي حنيفة من الكذب الظاهر .ا.هـ.

• وقال المعلمي في "طليعة التنكيل" (ص ٥٨ – ٦٠) بعد أن بين ضعف سندها، وفصل فيه : هذا حال السند، ولا يخفى على ذي معرفة أنه لا يثبت بمثله شيء ، ويؤكد ذلك حال القصة، فإن زيارته قبر أبي حنيفة كل يوم بعيد في العادة، وتحريه قصده للدعاء عنده بعيد أيضا؛ إنما يعرف تحري القبور لسؤال الحوائج عندها بعد عصر الشافعي بمدة ، فأما تحري الصلاة عنده ، فأبعد وأبعد .ا.هـ.

•وقال العلامة الألباني عن سند هذه القصة في الضعيفة (١/٣١ح٢٢)

"فهذه رواية ضعيفة بل باطلة فإن عمر بن إسحاق بن إبراهيم غير معروف وليس له ذكر في شيء من كتب الرجال، ويحتمل أن يكون هو عمرو – بفتح العين – بن إسحاق بن إبراهيم بن حميد بن السكن أبو محمد التونسي وقد ترجمه الخطيب وذكر أنه بخاري قدم بغداد حاجًا سنة ٣٤١هـ ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا فهو مجهول الحال، ويبعد أن يكون هو هذا إذ أن وفاة شيخه علي بن ميمون سنة ٢٤٧هـ على أكثر الأقوال فبين وفاتيهما نحو مائة سنة فيبعد أن يكون قد أدركه. وعلى كل حال فهي رواية ضعيفة لا يقوم على صحتها دليل" .اهـ.

وقد رد العلامة الألباني على الكوثري في نفس الموضع فقال :

"وأما قول الكوثري في مقالاته: وتوسل الإمام الشافعي بأبي حنيفة مذكور في أوائل تاريخ الخطيب بسند صحيح. فمن مبالغاته بل مغالطاته" ا.هـ.

– وفاة الإمام الشافعي

ألحَّ على الإمام الشافعي المرض وأذابه السقم ووقف الموت ببابه ينتظر انتهاء الأجل. وفي هذه الحال، دخل عليه تلميذه المزني فقال: كيف أصبحت؟ قال: "أصبحتُ من الدنيا راحلًا، وللإخوان مفارقًا، ولكأس المنيَّة شاربًا، وعلى الله جلَّ ذكره واردًا، ولا والله ما أدري روحي تصير إلى الجنة فأهنِّئها، أو إلى النار فأعزِّيها"، ثم بكى.

وقد دُفِنَ الإمام الشافعي –رحمة الله تعالى عليه– بالقاهرة في أول شعبان، يوم الجمعة سنةَ ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م. وكان له ولدان ذكران وبنت، وكان قد تزوج من امرأة واحدة.

٤. الإمام أحمد بن حنبل

– اسمه ونسبه

هو: أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس الشيباني، أحد الأئمة الأعلام.

كنيته: أبو عبدالله؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١١ ص ١٧٨)

– مولده ونشأته

وُلِد أحمد بن حنبل في ربيع الأول في بغداد سنة أربع وستين ومائة، ومات والده شابًّا، له نحو من ثلاثين سنة، وعاش أحمد يتيمًا، وقامت أمُّه على تربيته؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١١ ص ١٧٩)

وكسائر أترابه تعلم القرآن في صغره، وتلاه تلاوة جيدة وحفظه عن ظهر قلب، وعندما تجاوز الخامسة عشرة من عمره بدأ يطلب العلم، وأول من طلب العلم عليه هو الإمام أبو يوسف القاضي، والإمام أبو يوسف –كما هو معلوم – من أئمة الرأي مع كونه محدِّثًا، ولكن مع مرور الوقت وجد الإمام أحمد أنه يرتاح لطلب الحديث أكثر، فتحوَّل إلى مجالس الحديث، وأعجبه هذا النهج واتفق مع صلاحه وورعه وتقواه، وأخذ يجول ويرحل في سبيل الحديث حتى ذهب إلى الشامات والسواحل والمغرب والجزائر ومكة والمدينة والحجاز واليمن والعراق وفارس وخراسان والجبال والأطراف والثغور، وهذا فقط في مرحلته الأولى من حياته . ولقد التقى الشافعي في أول رحلة من رحلاته الحجازية في الحرم، وأُعجِبَ به، وظلَّ الإمام أحمد أربعين سنة ما يبيت ليلة إلا ويدعو فيها للشافعي. وقد حيل بين أحمد ومالك بن أنس فلم يوفَّق للقائه، وكان يقول: "لقد حُرِمتُ لقاء مالك، فعوَّضني الله –عز وجل– عنه سفيان بن عيينة."

– أخلاقه

١. قال أبو بكر المروذي: كان أبو عبدالله لا يجهل، وإن جُهِل عليه، حَلَمَ واحتمل، ويقول: يكفي الله.

ولم يكن بالحقود ولا العجول، كثير التواضع، حسن الخُلق، دائم البِشر، ليِّن الجانب، ليس بفظٍّ، وكان يحب في الله، ويُبغض في الله، وإذا كان في أمر من الدين، اشتد له غضبه، وكان يحتمل الأذى من الجيران؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١١ ص: ٢٢١: ٢٢٠)

٢. قال إسماعيل بن علية: كان يجتمع في مجلس أحمد نحو خمسة آلاف – أو يزيدون، نحو خمسمائة – يكتبون، والباقون يتعلمون منه حسن الأدب والسمت؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ١١ صـ: ٣١٦)

٣. قال أبو بكر بن المطوعي: اختلفت إلى أبي عبدالله ثنتي عشرة سنةً، وهو يقرأ (المسند) على أولاده، فما كتبت عنه حديثًا واحدًا، إنما كنت أنظر إلى هَدْيه وأخلاقه؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ١١ صـ: ٣١٦)

٣. روى ابن المنادي عن جده أبي جعفر، قال: كان أحمد من أحيا الناس وأكرمهم، وأحسنهم عِشرةً وأدبًا، كثير الإطراق، لا يسمع منه إلا المذاكرة للحديث، وذكر الصالحين في وقار وسكون، ولفظ حسن، وإذا لقيه إنسان بشَّ به، وأقبل عليه، وكان يتواضع للشيوخ شديدًا، وكانوا يعظمونه، وكان يفعل بيحيى بن معين ما لم أره يعمل بغيره من التواضع والتكريم والتبجيل، كان يحيى أكبر منه بسبع سنين؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ١١ صـ: ٣١٧: ٣١٦).

– عبادته

١. قال الإمام أحمد: حججتُ خمس حجج؛ منها ثلاث راجلًا، أنفقت في إحدى هذه الحجج ثلاثين درهمًا، قال: وقد ضللت في بعض هذه الحجج عن الطريق وأنا ماشٍ، فجعلت أقول: يا عباد الله، دلُّوني على الطريق، فلم أزَلْ أقول ذلك حتى وقفت على الطريق؛ (البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٠ صـ ٣٤٠)

٢. قال عبدالله بن أحمد: كان أبي أصبرَ الناس على الوَحدة، لم يره أحد إلا في مسجد، أو حضور جنازة، أو عيادة مريض، وكان يكرَه المشي في الأسواق، وكان أبي يصلِّي في كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة، فلما مرض من تلك الأسواط أضعفته، فكان يصلِّي في كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة، وقد كان قرب من الثمانين، وكان يقرأ في كل يوم سُبُعًا، يختم في سبعة أيام، وكانت له ختمة في كل سبع ليال، سوى صلاة النهار، وكان ساعة يصلي عشاء الآخرة ينام نومة خفيفة، ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو؛ (صفة الصفوة لابن الجوزي جـ ٢)

٣. قال صالح بن الإمام أحمد: كان أبي يصوم ويُدمِن، ثم يُفطر ما شاء الله، ولا يترك صوم الاثنين والخميس وأيام البِيض، فلما رجع من العسكر، أدمن الصوم إلى أن مات؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ١١ صـ: ٢٢٣)

٤. قال أبو بكر المروذي: رأيت أبا عبدالله يقوم لورده قريبًا من نصف الليل حتى يقارب السَّحَر، ورأيته يركع فيما بين المغرب والعشاء؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ١١ صـ ٢٢٣).

٥. قال أبو بكر المروذي أيضًا: كنت مع أبي عبدالله نحوًا من أربعة أشهر بالعسكر لا يدع قيام الليل وقراءة النهار، فما علِمتُ بختمة ختمها، كان يسرُّ ذلك؛ (صفة الصفوة لابن الجوزي جـ ٢ صـ ٣٣٩)

– علمه

طلب الإمام أحمد العلم وهو ابن خمس عشرة سنةً، وطاف في البلاد، وسمِع من علماء عصره، وكانوا يجلُّونه ويحترمونه في حال سماعه منهم؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ١١ صـ ١٨١)

سَعة حفظ الإمام أحمد

١. قال عبدالله بن أحمد: قال لي أبو زرعة: أبوك يحفظ ألفَ ألفِ حديث .فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرتُه، فأخذتُ عليه الأبواب،قال الإمام الذهبي :هذه حكاية صحيحةٌ في سَعة علم أبي عبدالله، وكانوا يعُدُّون في ذلك المكرَّر، والأثر، وفتوى التابعي، وما فسر، ونحو ذلك. وإلا فالمتون المرفوعة القوية لا تبلغ عُشْرَ مِعشار ذلك

٢. قال عبدالله بن أحمد: قال لي أبي: خذ أي كتاب شئت من كتب وكيع من المصنف، فإن شئت أن تسألني عن الكلام حتى أخبرك بالإسناد، وإن شئت بالإسناد حتى أخبرك أنا بالكلام..

٣. قال عليُّ بن المديني: ليس في أصحابنا أحفظ من أحمد، وبلغني أنه لا يحدِّث إلا من كتاب، ولنا فيه أسوة.

٤. قال أبو زرعة: حزرت كتب أحمد يوم مات، فبلغت اثني عشر حملًا وعدلًا، ما كان على ظهر كتاب منها: حديث فلان، ولا في بطنه: حدثنا فلان، كل ذلك كان يحفظه.

– مشايخه

هشيم، وسفيان بن عيينة، وإبراهيم بن سعد، وجرير بن عبد الحميد، ويحيى القطان، والوليد بن مسلم، وإسماعيل بن علية، وعلي بن هاشم بن البريد، ومعتمر بن سليمان، وعمر بن محمد ابن أخت الثوري، ويحيى بن سليم الطائفي، وغندر، وبشر بن المفضل، وزياد البكائي، وأبو بكر بن عياش، وأبو خالد الأحمر، وعباد بن عباد المهلبي، وعباد بن العوام، وعبد العزيز بن عبد الصمد العمي، وعمر بن عبيد الطنافسي، والمطلب بن زياد، ويحيى بن أبي زائدة، والقاضي أبو يوسف، ووكيع، وابن نمير، وعبد الرحمن بن مهدي، ويزيد بن هارون، وعبد الرزاق، والشافعي، وغيرهم.

– تلاميذه

البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابناه صالح وعبد الله، وشيوخه عبد الرزاق، والحسن بن موسى الأشيب. ومن تلاميذه أيضًا أبو بكر المروزي الفقيه، وأبو زرعة الدمشقي، وأبو بكر الأثرم، وإبراهيم الحربي، ويحيى بن معين، وغيرهم كثير.

– مؤلفاته ومصنفاته

كتاب المسند، وهو أكبر دواوين السنة المطهرة، إذ يحوي أربعين ألفًا من أحاديث النبي –صلى الله عليه وسلم–، انتقاها الإمام أحمد من بين سبعمائة وخمسين ألف حديث. وله من الكتب أيضًا كتاب الأشربة، وكتاب الزهد، وكتاب فضائل الصحابة، وكتاب المسائل، وكتاب الصلاة وما يلزم فيها، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب العلل، وكتاب السنن في الفقه.

– مما قيل فيه

–عن إبراهيم الحربي قال: "رأيت أحمد بن حنبل كأن الله قد جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف، يقول ما شاء ويمسك ما شاء."

–وعن أحمد بن سنان قال: "ما رأيت يزيد بن هارون لأحد أشد تعظيمًا منه لأحمد بن حنبل، ولا رأيته أكرم أحدًا كرامته لأحمد بن حنبل، وكان يقعد إلى جنبه إذا حدثنا، وكان يوقره ولا يمازحه، ومرض أحمد فركب إليه فعاده."

–وقال عبد الرزاق: "ما رأيت أفقه ولا أورع من أحمد بن حنبل."

–وقال وكيع، وحفص بن غياث: "ما قدم الكوفة مثل أحمد بن حنبل."

–وكان ابن مهدي يقول: "ما نظرت إليه إلا ذكرت به سفيان الثوري، ولقد كاد هذا الغلام أن يكون إمامًا في بطن أمه

– مما قاله الإمام

–الناس يحتاجون إلى العلم مثل الخبز والماء؛ لأن العلم يحتاج إليه في كل ساعة، والخبز والماء في كل يوم مرة أو مرتين.

–ما بلغني حديث إلا عملت به ، وما عملت به إلا حفظته.

–عزيز عليّ أن تذيب الدنيا أكباد رجال وعت صدورهم القرآن.

–قيل للإمام أحمد ، كم بيننا وبين عرش الرحمن ؟ قال : دعوة صادقة من قلب صادق.

–سُئل الإمام أحمد متى يجد العبد لذة الراحة ؟ قال : عند أول قدم يضعها في الجنـة.

–اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك.

–إذا أحببت أن يدوم الله لك على ما تحب فدم له على ما يحب.

–انو الخير فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير.

–اجعل التقوى زادك وانصب الآخرة أمامك.

–العلم لا يعدله شيء إذا كان خالصًا.

– قصص من حياة الإمام

(١) الإمام أحمد يرفض تولية القضاء:

قال الشافعي لأحمد بن حنبل: إن أمير المؤمنين – يعني محمدًا – سألني أن ألتمس له قاضيًا لليمن، وأنت تحب الخروج إلى عبدالرزاق، فقد نلت حاجتك، وتقضي بالحق.

فقال للشافعي: يا أبا عبدالله، إن سمعتُ هذا منك ثانيةً، لم ترني عندك.

وكان لأحمد بن حنبل ثلاثين سنةً، أو سبعًا وعشرين؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ١١ صـ ٢٢٤)

(٢) دعوته أن لا يجمع الله بينه وبين المأمون وأن لا يرى المتوكل

قال الإمام أحمد بن حنبل: تبيَّنت الإجابة في دعوتين: دعوت الله ألا يجمعَ بيني وبين المأمون، ودعوته ألا أرى المتوكل؛ فلم أرَ المأمون، مات بالبذندون (قرية) ، وبقي أحمد محبوسًا بالرقة حتى بويع المعتصم إثر موت أخيه، فرد أحمد إلى بغداد، وأما المتوكل فإنه نوَّه بذكر الإمام أحمد، والتمس الاجتماع به، فلما أن حضر أحمدُ دار الخلافة بسامراء ليحدث ولد المتوكل ويبرك عليه، جلس له المتوكل في طاقة، حتى نظر هو وأمه منها إلى أحمد، ولم يرَه أحمد؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ١١ صـ ٢٤٢: ٢٤١)

(٣) تذكره الموت ونبذه للشهرة

قال المروذي: كان أبو عبدالله إذا ذكر الموت، خنقته العَبْرة.

وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب، وإذا ذكرت الموت، هان عليَّ كلُّ أمر الدنيا، إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل، ما أعدل بالفقر شيئًا، ولو وجدت السبيل، لخرجتُ حتى لا يكون لي ذِكر.

وقال: أريد أن أكون في شِعب بمكة حتى لا أعرف، قد بُليت بالشهرة، إني أتمنى الموت صباحًا ومساءً؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ١١ صـ ٢١٦: ٢١٥)

– محنة الإمام أحمد بن حنبل

كان الإمام أحمد على موعد مع المحنة التي تحملها في شجاعة، ورفض الخضوع والتنازل في القول بمسألة عمَّ البلاء بها، وحمل الخليفة المأمون الناس على قبولها قسرًا وقهرًا دون دليل أو بيِّنة.

وتفاصيل تلك المحنة أن المأمون أعلن في سنة (٢١٨هـ/ ٨٣٣م) دعوته إلى القول بأن القرآن مخلوق كغيره من المخلوقات، وحمل الفقهاء على قبولها، ولو اقتضى ذلك تعريضهم للتعذيب، فامتثلوا خوفًا ورهبًا، وامتنع أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح عن القول بما يطلبه الخليفة، فكُبِّلا بالحديد، وبُعث بهما إلى بغداد إلى المأمون الذي كان في طرسوس، لينظر في أمرهما، غير أنه توفِّي وهما في طريقهما إليه، فأعيدا مكبّلين إلى بغداد.

وفي طريق العودة قضى محمد بن نوح نحبه في مدينة الرقة، بعد أن أوصى رفيقه بقوله: "أنت رجل يُقتدى به، وقد مدَّ الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك؛ فاتقِ الله واثبت لأمر الله."

وكان الإمام أحمد عند حسن الظن، فلم تلن عزيمته، أو يضعف إيمانه أو تهتز ثقته، فمكث في المسجد عامين وثلث عام، وهو صامد كالرواسي، وحُمل إلى الخليفة المعتصم الذي واصل سيرة أخيه على حمل الناس على القول بخلق القرآن، واتُّخذت معه في حضرة الخليفة وسائل الترغيب والترهيب، ليظفر المجتمعون منه بكلمة واحدة، تؤيدهم فيما يزعمون، يقولون له: ما تقول في القرآن؟ فيجيب: هو كلام الله. فيقولون له: أمخلوق هو؟ فيجيب: هو كلام الله. ولا يزيد على ذلك.

ويبالغ الخليفة في استمالته وترغيبه ليجيبهم إلى مقالتهم، لكنه كان يزداد إصرارًا، فلما أيسوا منه علَّقوه من عقبيه، وراحوا يضربونه بالسياط، ولم تأخذهم شفقة وهم يتعاقبون على جلد جسد الإمام الواهن بسياطهم الغليظة حتى أغمي عليه، ثم أُطلق سراحه وعاد إلى بيته، ثم مُنع من الاجتماع بالناس في عهد الخليفة الواثق (٢٢٧- ٢٣٢هـ/ ٨٤١- ٨٤٦م)، لا يخرج من بيته إلا للصلاة، حتى إذا ولي المتوكل الخلافة سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٦م)، فمنع القول بخلق القرآن، وردَّ للإمام أحمد اعتباره، فعاد إلى الدرس والتحديث في المسجد.

- من أبرز الشبهات التي تعرض لها

وصف الفقه الحنبلي بالتشدد:

حيث اشتهر عند أتباع المذاهب الأخرى أن الفقه الحنبلي فيه قدر من التشدد، وقد غفل كثير من الناس عن أصل هذا القول حتى أصبح سمة ينظر من خلالها إلى الفقه الحنبلي، وقد غاب في طيات هذا التعميم كثير من المعاني المتميزة حتى اختلط البعد الفقهي بالبعد العقدي، والسؤال هنا هل بنية الفقه الحنبلي تقتضي هذا الوصف؟ أم هناك أسباب أخرى؟

وللإجابة عن هذا السؤال لا بد من أن نقدم بمقدمات توضح هذا الأمر:

أولًا: إن قضيتي التشدد والتساهل قضيتان نسبيتان تختلف فيهما الأنظار فما يراه بعض الناس تشددًا يخالفهم فيه غيرهم، ومثله التساهل، والمرجع في هذا هو الرد إلى الكتاب والسنة، وأما نظر الناس المجرد فلا يؤخذ منه هذا الحكم.

ثانيًا: أن الحنبلية مصطلح تاريخي يحمل أكثر من معنى، فالحنبلية اسم من أسماء أهل السنة في مدة زمنية مضت، وقد ظهر هذا المصطلح في القرن الرابع في بغداد، حيث اشتد الخصام بين أهل السنة – الحنابلة – والأشاعرة والشيعة، وأما ما نقل عن تشدد الحنابلة في تلك المدة فمنقول عن المخالفين لهم من علماء التاريخ مثل ابن الأثير في "الكامل من ذلك قوله :"وَفِيهَا –أي سنة ثلاث وعشرين بعد الثلاثمئة– عَظُمَ أَمْرُ الْحَنَابِلَةِ، وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُمْ، وَصَارُوا يَكْبِسُونَ مِنْ دُورِ الْقُوَّادِ وَالْعَامَّةِ، وَإِنْ وَجَدُوا نَبِيذًا أَرَاقُوهُ، وَإِنْ وَجَدُوا مُغَنِّيَةً ضَرَبُوهَا وَكَسَرُوا آلَةَ الْغِنَاءِ، وَاعْتَرَضُوا فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ"(٦\٤١٣).

ويطلق الحنابلة على من اتبع الإمام أحمد في الفروع ولو خالفه في بعض المسائل الأصلية – مثل القاضي أبي يعلى وهو من كبار علماء المذهب وابن الجوزي وابن عقيل، ... فهؤلاء العلماء حنابلة في الفروع مع مخالفتهم للإمام احمد في بعض المسائل الأصلية، وهذه هي النسبة المشهورة .

ثالثًا: أن المعتبر في المذهب هي الرواية التي تجري على مقاييس علماء المذهب، حيث وضعوا ضوابط لكل مرحلة من مراحل المذهب وهي ثلاث مراحل، متقدمين – متوسطين – متأخرين وكل مرحلة لها أصولها وضوابطها وخصائصها، إذن فليس كل رواية في المذهب تعتبر هي المذهب بل ما صُحح وجرى عليه العمل بشرطه

. رابعًا: لا يصح أن يوصف الرأي في الفقه بأنه متشدد أو متساهل إذا وافق الدليل من كتاب أو سنة أو بني على أصل صحيح.

– وفاة الإمام أحمد بن حنبل

عن بنان بن أحمد القصباني أنه حضر جنازة أحمد بن حنبل فيمن حضر، قال: "فكانت الصفوف من الميدان إلى قنطرة باب القطيعة، وحُزِر (حَزَر الشيء: قدَّره بالتخمين) من حضرها من الرجال فكانوا ثمانمائة ألف، ومن النساء ستين ألفًا.

رحم الله الإمام أحمد بن حنبل رحمةً واسعةً، وأسكنَه فسيح جناته.

خاتمة

وفي الختام هذا ما يسره الله لنا ونرجوا أن يكون قد انكشف الغمام عن أئمتنا الأعلام وتعرفنا على جانب كبير من حياتهم وسيرتهم وأقوالهم والشبهات التي تعرضوا لها سواء من الجاهلين أو الحاقدين على الإسلام.

وَقَوْلُ أَعْلَامِ الهُدَى لَا يُعْمَلُ = بِقَوْلِنَا بِدُونِ نَصٍّ يُقْبَلُ
فِيهِ دَلِيلُ الأَخْذِ بِالحَدِيثِ = وَذَاكَ فِي القَدِيمِ وَالحَدِيثِ
قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ الإِمَامُ = لَا يَنْبَغِي لِمَنْ لَهُ إِسْلَامُ
أَخْذًا بِأَقْوَالِيَ حَتَّى تُعْرَضَا = عَلَى الحَدِيثِ وَالكِتَابِ المُرْتَضَى
وَ مَالِكٌ إِمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ = قَالَ وَقَدْ أَشَارَ نَحْوَ الحُجْرَةِ
كُلُّ كَلَامٍ مِنْهُ ذُو قَبُولِ = وَمِنْهُ مَرْدُودٌ سِوَى الرَّسُولِ
وَ الشَّافِعِيُّ قَالَ إِنْ رَأَيْتُمُ = قَوْلِي مُخَالِفًا لِمَا رَوَيْتُمُ
مِنَ الحَدِيثِ فَاضْرِبُوا الجِدَارَا = بِقَوْلِيَ المُخَالِفِ الأَخْبَارَا
وَ أَحْمَدٌ قَالَ لَهُمْ لَا تَكْتُبُوا = مَا قُلْتُهُ بَلْ أَصْلُ ذَاكَ فَاطْلُبُوا
فَانْظُرْ لِمَا قَالَ الهُدَاةُ الأَرْبَعَهْ = وَاعْمَلْ بِهَا فَإِنَّ فِيهَا مَنْفَعَهْ
لِقَمْعِهَا لِكُلِّ ذِي تَعَصُّبِ = وَالمُنْصِفُونَ يَكْتَفُونَ بِالنَّبِيْ

تم بحمد الله بتاريخ: ٢٠١٩/٣/١١

إعداد فريق العلمية بمنتدى الطريق إلى الله

/https://forums.way2allah.com

ولا تنسونا من صالح دعائكم

المصادر

– موقع قصة الإسلام (أبو حنيفة، مالك، الشافعي).

– شبكة الألوكة (الإمام الفقيه أبو حنيفة النعمان /الشيخ صلاح الدقاق).

– إسلام ويب مركز الفتوى.

– كتاب أبو حنيفة النعمان – إمام الأئمة الفقهاء، وهبي سليمان غاوجي، دار القلم، دمشق، الطبعة الخامسة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٢٨٩.

– شبكة الألوكة (مقال كلمات توجيهية ودعوية للإمام أبي حنيفة/أ.د محمد مختار المهدي).

– (مقال الإمام أبو حنيفة النعمان/ ملتقى الخطباء بتصرف).

– شبكة الألوكة (مقال أبو حنيفة وتوجيه امرأة).

– صيد الفوائد (مقال صور من ابتلاء العلماء)

– شبكة الألوكة (مقال مواقف تربوية للإمام أبي حنيفة مع طلابه ومدعويه/ أ.د محمد المختار المهدي).

– شبكة الألوكة (باختصار من مقال محنة الإمام أبي حنيفة).

– (من كتاب: الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية عرض وتفنيد ونقض/ المؤلف: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني / موسوعة الرد على الشبهات).

– المكتبة الإسلامية/ الإسلام ويب/ الكتب/سير أعلام النبلاء.

– الإسلام سؤال وجواب.

– المكتبة الإسلامية الشاملة.

– من هو الإمام مالك، شبكة مشكاة الإسلامية.

– إمام دار الهجرة مالك بن أنس/الشيخ صلاح نجيب الدق/ شبكة الألوكة بتصرف).

– محنة الإمام مالك بن أنس/ شبكة الألوكة.

– ملتقى أهل الحديث

– الإمام الفقيه محمد بن إدريس الشافعي/ صلاح نجيب الدق/ الألوكة) باختصار.

– الشبكة الفقهية باختصار.

– الإمام الشافعي حياته وأراؤه وفقهه/ ملتقى الخطباء.

– من كتاب: حقيقة البدعة وأحكامها، د سعيد بن ناصر الغامدي.

– القدوة في سيرة الإمام الشافعي/ الألوكة.

– موسوعة الرد على الشبهات باختصار.

– إمام أهل السنة: أحمد بن حنبل/ الألوكة.

– سير أعلام النبلاء للذهبي.

– الإمام أحمد بن حنبل/ الكلم الطيب.

لقد جعل الله سبحانه هذه الأمة مع علمائها، كالأمم الخالية مع أنبيائها، فهؤلاء العلماء هم المقتدى بفعالهم، "فاتفاقهم حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة" ، تحيا القلوب بأخبارهم، وتحصل السعادة باقتفاء آثارهم. ومن العلماء الذين برزوا الأئمة الأربعة؛ أبو حنيفة، مالك، الشافعي، أحمد بن حنبل، أربعة من الأئمة العظام على أيديهم تتلمذ الناس وأُلفت الكتب وأسست المذاهب. فهيا بنا نتعرف على سيرتهم العطرة في موسوعتنا هذه

"كشف الغمام عن الأئمة الأعلام"